جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم دراسة في ضوء نظرية السياق

الدكتورة

أمل عبد الفتاح أحمد محمد

المدرس بقسم أصول اللغة كلية البنات الإسلامية بأسيوط

العدد التاسع عشر
للعام ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م
الجزء الثانى
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٥م
الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾

صدق الله العظيم

سورة الإسراء: الآية (٨٠)

توطئة

لقد بلغ القرآن الكريم ذروة الفصاحة والبيان، فهو معجز في شكله ومضمونه، ومن أبرز دلائل إعجازه دقته في اختيار الألفاظ، فكل لفظ وضع في مكانه المناسب في بناء محكم متماسك، إذ لا يمكن أن يستبدل بلفظ آخر ولو حصل ذلك لاختل المعنى وتُشوه البناء.

تقوم هذه الدراسة على اصطفاء صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم، ودراستها دراسة سياقية، لتكون أنموذجًا دالاً على الوحدة السياقية للنص القرآني، وإن من أعظم ما يبين منزلة هذا العلم أنه مرتبط حقيقة بالقرآن نفسه من حيث إنه تفسير للقرآن بالقرآن، ذلك أنه تفسير للآية بما تضمنه نصها، أو بما سبقها ولحقها من الآيات، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن، وإن الدارس ليلحظ أن هذا الكم من صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان وتراكيبها قد يشير ــ من الوجهة الظاهرية ــ إلى شيء من التكرار أو التغاير ــ بيد أن ما يُظنُّ من تكرار أو تغاير ما هو إلا لبنة تفضي إلى تضافر، فضلاً عن اشتماله على مواد تكشف جانبًا من غنى النص ــ تعددًا وتنوعًا ــ ولمَ للدرس السياقي من أثر في بناء تصور كل من مجموع عناصر آياته ينبئ عن وجود نسج علائقي متين بين نظم ألفاظه في تراكيبه.

والبحث إذ يستقرئ هذه الصفات والأحوال وما يستتبعها من تراكيب، فإنه يعالج متفرقها وجمعها في سياقها وبيان مقامي خاص، متكئًا على ما انتثر من التفاتات السلف لهذه الصفات في بطون المعاجم والتفاسير، فضلاً عن جهود علماء اللغة القدامى والمحدثين في هذا المجال.

المقدمة

الحمد لله ذي السلطان العظيم، وليَّ الكلمات التامات، ومنزل القرآن العظيم على أشرف رسول وصف بقوله جلَّ من قائل: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الأمين، أفضل من جهر بالقرآن ورتّله على مُكث فكان تبياناً لكل شيء وهديً ورحمةً وبشرى للمسلمين.

ورضي الله تبارك وتعالى عن صحابة رسول الله ﷺ وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأدخلنا معهم في عفوه ورضاه إنه جواد كريم.

أما بعد،،،

فإن أفضل ما صُرفت إليه الهممَ، وأفنى في سبيله العمر، وأعمل فيه الفكر، وأشغل فيه اللسان بالذكر كتاب الله المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، ذلك أنه ينبوع العلوم ومصدرها، وأساس المعرفة ومنشؤها، من تمسك به أمن من الضلال، ونال رضى الكبير المتعال، ومن عمل بما فيه ألبسه الله الحلل، وأسكنه الظلل، وجعله من أوليائه المتقين، وحشره في زمرة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فهو من أجلِّ الطاعات وأفضل القربات إلى وليّ الحسنات والدعوات المستجابات، فكلما ازداد المرء فيه تلاوة زاد طهارة، وكلما ازداد فيه تعمقًا ازداد تعلقًا ومعرفة بالله سبحانه وتعالى، ومن هنا كثر الوافدون على معين هذا الكتاب المبين لاستخراج مكنونة، وما أودع الله فيه من أسرار وآيات بينات، ودلائل باهرات، لذا كان الانشغال بهذا العلم تعلمًا وتعليمًا من أجلِّ الأعمال، ومن أرفع الخصال، وكذلك الكتابة والتأمل فيه من أجلِّ المطالب التي يستحق أن تفنى فيها الأعمار، فهو المحور الرئيس لدى البحث الدلالي؛ باعتباره نصًا عربيًا ذا طابع إعجازي، وكتابُ إلهي ذا منطق عربي، فقد توافرت فيه الدلائل والأمارات والبينات لتجلية هذا البحث والتنظير له تطبيقًا في لمح أبعاد الدراسة السياقية.

ولقد كان علم السياق من العلوم المهمة، والقواعد المؤثرة في تفسير النصوص الشرعية عامة، وقد أولاه أهل العلم منزلة خاصة لما عرفوا من عظيم

---

(١) التوبة: من الآية (١٢٨).

دوره، فهذا الإمام ابن دقيق العيد (ت٧٠٢هـ) يقول: "فإن السياق طريق إلى بيان المجملات وتعيين المحتملات وتنزيل الكلام على المقصود منه"[١].

وليس في هذا التنظير إحصاء أو استقصاء، فقد جاء هذا التنظير كشفًا لنظرية البحث السياقي التي تدور حول محوره، وتتفيأ ظلاله في بحث قُيد بعنوان: "**صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم: دراسة في ضوء نظرية السياق**".

وتقوم هذه الدراسة على اصطفاء صفات أعضاء خلق الإنسان التي تأخذ حيزًا كبيرًا من آي الذكر الحكيم، لتكون أنموذجًا دالاً على الوحدة السياقية للنص القرآني، والتعرف على موقعها من السياق المقامي عن طريق ربطها بالمكونات الأخرى كالزمان والأحداث والأشخاص ...

أهمية البحث وقيمته العلمية:

يستمد هذا البحث أهميته وقيمته العلمية من النقاط التالية:

١ــ كونه اتَّخذ لغة القرآن الكريم اللغة المثال لاستجلاء صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان، واستنباط الدلالات السياقية، فلغتُهُ تُعدُّ حجةٌ قاطعة على لغة كل نص مهما علت وارتقت أهميته؛ وذلك لأنه النص الوحيد الصحيح على الإطلاق الذي سلم من مظنة الوضع والتبديل.

٢ــ مجاله التطبيقي هو القرآن الكريم وهو النص اللغوي العربي الكامل في الفصاحة والبلاغة والإعجاز والبيان، فهو نص يتسم بصفة الكمال المطلق المستمدة من كمال قائله سبحانه وتعالى.

٣ــ ومن توظيف الإحصاء في الاستدلال للوصول بها إلى النتائج المرجوة وجعل كل ما ورد في السياق القرآني من صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان الحَكَم الفَصْلَ على صحة تركيبها ودلالاتها السياقية.

٤ــ أنه يُظهر اهتمام عدد كبير من المفسرين وغيرهم بجوانب صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان، وكيف تعاملوا معها، وكيف فهموا واستنبطوا.

---

(١) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين ابن دقيق العيد (ت٧٠٢هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، أحمد محمد شاكر، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٢هـ ــ١٩٥٣م، ٨٢/٢.

أسباب اختيار الموضوع ودوافعه:

من أهم الأسباب والدوافع لاختيار (صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم: دراسة في ضوء نظرية السياق) موضوعًا لهذا البحث، ما يلي:

١ــ أنَّ القرآن الكريم مصدر العلوم، وأصل الحقائق الثابتة، يرجع إليه علماء اللغة لإظهار إعجازه، والإفادة من أساليبه ومعاني كلماته الإفرادية والتركيبية.

٢ــ مكانة آيات أعضاء خلق الإنسان وأهميتها في القرآن الكريم في الكشف عن مكنون كثير من المعاني التي تختفي وراء اللفظ، الأمر الذي لا يمكن استنطاقه إلا بمعرفة دلالته في النص وموقعه من الكلام.

٣ــ الإلمام بصفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم، وكشف النقاب عنها سياقيًا يكوِّن لدى الباحث خصوصًا ــ والمسلم عمومًا ــ قواعد تلفته إلى التدبر في القرآن بشكل أكبر، وتنبهه إلى آثاره المتعددة؛ لتكون دافعًا لفهمه، والعمل به وتقديره.

أهـــداف البحث:

يطمح هذا البحث جاهدًا إلى تحقيق بعض الأهداف، من أهمها:

١ــ تحديد الدلالة السياقية لكل صفة عضو من أعضاء خلق الإنسان على حدة من خلال استقراء ومناقشة آراء المفسرين واللغويين والبلاغيين، ثم عرضها على واقع السياق القرآني، وذلك من خلال إحصاء مواضعها في القرآن الكريم، وتوزيعها إلى أنماطها التركيبية المختلفة، ودراستها وتحليلها في ضوء السياق القرآني نفسه.

٢ــ تبيين أثر السياق القرآني في توجيه المعنى لصفات أعضاء خلق الإنسان على مستوى الوحدة الصغرى للنص القرآني المتمثلة في الآية القرآنية، والجملة القرآنية للدلالة على المعاني السياقية الأساسية والفرعية المتنوعة والجزئية المتعددة، وتكاتفها جميعًا لأداء المعنى الدلالي الكلي في النص القرآني.

٣ــ الوصول بهذا البحث من مرحلة التنظير لمنهج السياق في تراثنا العربي إلى مرحلة التطبيق للسياق القرآني من خلال استخراجه من واقع التطبيق الفعلي لموضوع هذا البحث.

٤ــ الوصول إلى الوظائف التركيبية لصفات أعضاء خلق الإنسان وتوظيفها في أداء المعاني الدلالية السياقية بتوجيه من واقع السياق القرآني نفسه، وإبراز أثر سياق المقام في تحديد المعنى السياقي المجازي، والمعنى الوضعي الحقيقي لكل عضو من هذه الأعضاء على حدة ومن واقع استعماله في موضعه المناسب من النص القرآني.

الدراسات السابقة:

لا تنكر الباحثة وجود بعض الدراسات التي تناولت صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم، وليس أدل على ذلك من هذا الموروث الضخم في مكتبة التفسير عبر العصور، وهذا الكم الهائل من الأبحاث والدراسات من مختلف العقول من غير أن يتخاطر أو يتعارض الفهم بينهم(١)، ولا غرو في ذلك، فالقرآن الكريم نبعٌ، أصيلٌ، نستقي منه علومنا، ونستلهم منه معارفنا، وعلى سعة هذا الموروث فإنه ما من بشر أحاط بمراد الله في آياته علمًا، ولا عالم يعلم تأويله على وجه التحقيق ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ﴾(٢).

المنهج المتبع في هذه الدراسة:

الأصل في هذا البحث أنه يقوم بدراسة صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم ومعانيها على ضوء معطيات ونتائج منهج السياق المستمد من واقع النص القرآني، ولاسيما في جانبه التطبيقي، وعلى ضوء الأحكام والضوابط

---

(١) يعد خلق الإنسان وأحواله وأعضائه من الموضوعات التي عُني بها بعض اللغويين العرب القدامى، من أمثال: الأصمعّي عبدالملك بن قريب (ت:٢١٦هـ) في (الكنز اللغوي في اللّسن العربي)، والزّجاجي (ت:٤١٥هـ)، وثابت بن أبي ثابت (ت:٢٢٤هـ)، ومنهم من أفرد بابًا من كتابه لهذا الموضوع كابن السكيت (ت:٢٢٤هـ) في كتابه (كنز الحفاظ في تهذيب الألفاظ)، وابن سيده (ت:٤٥٨هـ) في (المخصّص)، وغيرهم. أما العلماء المحدثون فمنهم: كتاب (الإنسان في القرآن الكريم لعباس محمود العقاد، وكتاب (الإنسان في القرآن الكريم) لمحمد لطفي الصباغ، وكتاب (أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم: دراسة معجمية لغوية) للدكتور سيد أحمد علي الصاوي.

(٢) آل عمران: من الآية (٧).

في تراكيبها ومعانيها الوظيفية، ودلالاتها السياقية التي أجمع عليها العلماء في الجانب التنظيري؛ وذلك لأن أي منهج لا يمكن أن يكون بعيدًا عن تأثيرات مناهج أخرى، لهذا فقد جُعلت الدراسة قائمة على قراءة الآيات القرآنية المتضمنة (صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان) وفهمها والوقوف على هذه الصفات والأحوال، ومن ثم محاولة توضيح مدلولاتها السياقية ويمكن تسمية هذا المنهج بالمنهج الوصفي التطبيقي.

محتويات البحث:

اقتضى واقع هذه الدراسةَ ــ حتى تُجْنَي ثمارها ــ أن يقسم البحث إلى ثلاثة مباحث أساسية مصدّرة بمقدمة ومقفوة بتمهيد ومُرْدَفَة بخاتمة، وتفصيلها كما يلي:

المقدمة: عُرض فيها أهمية البحث وقيمته العلمية، وأسباب اختيار الموضوع، وأهدافه، ومنهج البحث، والخطة التي سار عليها.

التمهيد: **"وصف الإنسان في القرآن الكريم في ضوء السياق اللغوي"**، وهو الجانب التنظيري للدخول إلى دراسة موضوع البحث وتحليله، وفيه:

أولاً : مفهوم الصفة، والحال.

ثانيًا : الإنسان في القرآن الكريم.

ثالثًا : السياق أهميته ومجالاته.

"صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم: دراسة وتحليل"، الجانب التطبيقي للدراسة، ويتكون من عدة مباحث:

المبحث الأول: صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان الباطنة.

المبحث الثاني: صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان الظاهرة.

المبحث الثالث: صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان ذات التعبير الحركي.

أما التقسيمات الداخلية للمباحث، فقد تحكم فيها ميدان التطبيق ــ صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان ــ بالدرجة الأساس.

وأخيرًا : **الخاتمة**: وتتضمن أهم ما توصل إليه البحث من نتائج، وبعدها ثبت المصادر والمراجع، وأخيرًا فهرس المحتويات.

كانت هذه هي خطة البحث المتبعة في أثناء الدراسة، وأرجو أن أكون قد وفقت في استقصاء ما يستحق النظر، وفي استنباط ما تُرجى فائدته، ولا أدعي أنني درست كل ما يتعلق بصفات وأحوال أعضاء الإنسان، وإنما هي محاولة للاقتراب من موضوع بينه وبين الكمال بون شاسع، وقد قال الإمام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين): "فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه، ولو كان البحر مدادًا والأشجار أقلامًا فأسرار كلمات الله لا نهاية لها، فتنفد الأبحر قبل أن تنفد كلمات الله عز وجل"(١).

وختامًا: فما كان في هذا البحث من مفيد فإنه من توفيق الله تعالى، وأجزم ألايد لي فيه إلا الكتابة، وما كان من تقصير أو نقص أو استدراك ــ ولا يخلو من ذلك ــ فإنه من نفسي.

والله أسأل أن يظهر الجميل، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يستعملنا في طاعته، وأن يُسخرنا لخدمة هذا الكتاب الكريم ما بقي من أعمارنا، وما سرت الروح في أجسادنا، بفضله وكرمه وإحسانه، إنه جواد قريب مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ت٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت ٢٩٣/١.

التمهيد
وصف الإنسان في القرآن الكريم في ضوء السياق اللغوي

لمحات دلالية:

الصفة لغة واصطلاحًا:

الصفة في اللغة:

عرف ابن فارس الوصف بقوله: "الوصف تحلية الشيء، والصفة الأمارة اللازمة للشيء"(١)، والصفة الأمارة اللازمة تعني أن هذا الشيء صار متصفًا بهذه الصفة لا تنفك عنه. وذهب الخليل في تعريفه للنعت، فقال: "النعت وصفك الشيء بما فيه، ويقال النعت وصف الشيء بما فيه إلى الحُسن مذهبه إلا أن يتكلف متكلف فيقول: هذا نعت سوء"(٢). وابن فارس يقصر النعت ــ الوصف ــ على وصف الشيء بما فيه من حُسن، فيقول: "وكل شيء جيد بالغ نعت"(٣)، وعرف الزمخشري الصفة بأنها: "الاسم الدال على بعض أحوال الذات"(٤)، فالصفات يراد بها إطلاق المعنى وعمومه للموصوف بأفعاله وأحواله لا بخلْق فيه أو علامة في ذات جوهره، في حين أن النعوت خاصة؛ لأنها تستعمل فقط فيما يتغير من الجسم، ولذلك لا يجوز إطلاقها على الله عز وجل(٥)، والسبب في اختيار الصفة في عنوان البحث دون النعت، وإن كان النعت والصفة بمعنى واحد(٦)، فالصفة تسمية بصرية، والنعت تسمية كوفية، وقيل: "النعت خاص بما يتغير كقائم وضارب، والوصف والصفة لا يختصان بل يشملان نحو: عالم وفاضل، وعلى الثاني يقال: صفات الله وأوصافه، ولا يقل نعوته، ولكن الصفة والنعت مصدران بمعنى

---

(١) مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، بيروت، دار الجيل ١١٥/٦.
(٢) العين، دار ومكتبة الهلال ٧٢/٢.
(٣) المصدر السابق ٤٤٨/٥.
(٤) المفصل في علم العربية، الزمخشري، (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، ت٥٣٨هـ)، بيروت، دار إحياء العلوم، ١٩٩٠م، ص١٤٠.
(٥) معجم الباقلاني في كتبه الثلاثة: التمهيد، والإنصاف، والبيان، سميرة فرحات، ط١، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٩١م، ص٢٢.
(٦) ينظر: معجم الصحاح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٣٩/٤ (و ص ف).

واحد"(١). والحال يستعمل في اللغة للصفة التي عليها الموصف، قال الزبيدي: "والحال كينَةُ الإنسان وما هُو عليهِ من خيرٍ أو شرّ، والحال في اللغة: ما يَخْتَصُ به الإنسانُ وغيُره من الأمور المتَغيِّرة في نفسهِ وبَدَنهِ وقُنْيَتهِ"(٢).

الصفة في الاصطلاح:

عرّف السهيلي النَعْت بقوله: "النعت: تخصيص الاسم لصفة هي له، أو لسبب يُضاف إليه"(٣). وعرفها ابن جني بقوله: "الوصف لفظ يتبع الاسم الموصوف تحليةً له، وتخصيصًا ممن له مثل اسمه بذكر معنى في الموصوف، أو في شيء من سببه"(٤).

أغراض الصفة:

يستطيع الباحث الوقوف على الأغراض التي يؤتي بالصفة من أجلها من خلال الإطلاع على التعريفات التي ساقها النحاة للصفة، فابن عقيل يعرف الصفة بأنها: "التابع المكمل متبوعه ببيان صفة من صفاته، أو من صفات ما تعلق به". وتكون الصفة للتخصيص أو للمدح أو للذم أو للترحم أو للتأكيد"(٥).

مفهوم العضو:

ويوضح ابن سيدة دلالة العضو بقوله: "العُضْوَ كُلُّ عظْمٍ من الجسم وافِر بلْحمه". والعَضَة: القطعةُ من الشيء، وعَضَيْتُ الشيء عضَةً إذا وَزّعْتَه، وعند أبي عبيد: الشِّلْو: العُضْو من أعضاء اللَّحم، وجمعُه أشْلاءُ. وتستعمل في غير اللحم كأشْلاء الدِرع واللِّجام وجمعه أشلاء، ويسمى الوَرْب: والجمع: أوْرابٌ"(٦).

مدلول كلمة إنسان:

---

(١) نحو اللغة العربية، محمد أسعد النادري، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٢م، ص٥٦٣.
(٢) تاج العروس، دار الهداية، ٣٧٤/٢٨ (ح و ل).
(٣) نتائج الفكر في النحو، للسهيلي، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، ص٢٠٢.
(٤) اللمع في العربية، ابن جني، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ١٩٧٩، ص١٣٨.
(٥) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ابن عقيل، ط١٦، بيروت، دار الفكر، ١٩١/٣ــ١٩٢.
(٦) المخصص، ابن سيدة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ــ١٩٩٦م، ٤٢٣/١ ٤٢٣/١ (ع ض و).

وردت كلمة (إنسان) في القرآن الكريم في خمسة وستين موضعًا[١]، مما يؤكد أهمية الإنسان ورفعة شأنه "فالإنسانية في القرآن ارتقاء إلى الدرجة التي تؤهله للخلافة في الأرض، واحتمال تبعات التكليف؛ لأنه المختص بالعلم والبيان والعقل والتمييز"[٢].

والإنس: البشر كالإنسان، الواحد: أنْسَي وأنَسيّ جمع أناسيَ، وقرأ يحيى بن الحارث: "وأناسي كثير"[٣]، بالتخفيف.

أفضلية الإنسان:

إن الإنسان ليزداد كرامة وتعقلاً بتدبره لحقيقته في القرآن الكريم، على أن يشفع هذا التعقل وذاك التدبر بالتطبيق العملي الذي يبدأ بشكر الله تعالى المنعم المكرم للإنسان؛ لذا عني القرآن الكريم بالإنسان عناية كبرى، وحرص على هوايته وسعادته بما يرشده إليه من مناهج لإصلاح ذاته وذات مجتمعه، وللبشرية كلها، فلا عجب من وجوده بتصوراته المختلفة في القرآن الكريم.

وقد تباينت الدراسات التي تناولت الإنسان، فمنها النفسية، والاجتماعية، والتشريحية، والطبية، والفلسفية، ولكن يبقى للقرآن تفرده وتميّزه في هذا المجال، فقد أولى القرآن الكريم عناية بالغة بالإنسان، و"فرق بين خلقه للنبات والدوابّ والبهائم، عن خلقه للإنسان، إذ لم يمرّ آدم في طوره الأول من النبات إلى خلية، أو من الدواب إلى البهائم"[٤]، فلم يسبق القرآن كتاب تناول الإنسان بهذه الصورة، وبهذا التفصيل البيِّن، بل "إن القرن العشرين لم يضع الإنسان في موضع أكرم له، وأصدق في وضعه من موضعه عند أهل القرآن"[٥].

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الكتب المصرية، ١٣٦٤هـ ــ١٩٨٧م، ص٩٣، ٩٤ (أ ن س).

(٢) القرآن وقضايا الإنسان، د. عائشة عبد الرحمن، ط٣، دار العلم، بيروت، ١٩٧٨م، ص١٩.

(٣) من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٨، ٤٩]، (معاني القرآن، الفرّاء ٢/٢٧٠).

(٤) أصل الإنسان في القرآن الكريم، سامي عابدين، ط١، بيروت، دار الحرف العربي، ٢٠٠٥م، ٢٠٠٥م، ص١٥.

(٥) الإنسان في القرآن الكريم، عباس العقاد، بيروت، دار الكتاب، ١٩٦٩م، ص١٩٠.

وللإنسان مكونات فهو مخلوق ابتداء، وفي تصميم خلقه جعله الله يتنفس الهواء برئتيه، ويهضم الطعام بمعدته، ويلمس ويمسك الأشياء بيديه، ويمشي على الأرض برجليه، ويسمع الأصوات بأذنيه، ويرى الموجودات بعينيه، وينطق الكلام بلسانه، ويشمّ الروائح بأنفه، حتى يتمكن من فهم الكون المحيط به، واستغلاله واستثمار طاقاته لصالحه(١)، إذ لابد له من مقوّمات ومكوّنات حتى يقوم برسالته، وهذه المكونات أساسية، كالدم، والجلد، والعظم، والروح، واللّحم، والأعضاء التي تعد مداخل للحسّ، كالأنف، واللسان، والعين، واليد، والأذن، والأعضاء الظاهرة وهي كثيرة، كالبطن، والرجل، والظهر، والصدر، والذَراع، والبنان، والعنق، ... وغيرها. والأعضاء الباطنة، كالأرحام، والأفئدة، والأمعاء، والوريد، والحلق، والحنجرة، والسن، ... وغيرها. هذا الإنسان المحدود في أعضاءه وجوارحه ومشاعره، يملك طاقات ضخمة تجعله سيّد ما حوله، بل تجعله ملكًا واسع النفوذ والسلطان(٢). بذلك يُدرس الإنسان في القرآن الكريم.

السياق أهميته ومجالاته:

السياق لغة من الجذر اللغوي (س و ق)، والكلمة مصدر (ساقَ يسُوق سَوْقًا وسِياقًا)، فالمعنى اللغوي يشير إلى دلالة الحدث، وهو التتابع(٣)، وذكر التهانوي: أن السياق في اللغة بمعنى (الإيراد)(٤).

ويتضح هذا تمامًا في تعريف صاحب كتاب نظرية السياق القرآني بقوله: هو "تتابع المعاني وانتظامها في سلك من الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود دون انقطاع أو انفصال"(٥). فالمعنى إذن "لا

(١) الإنسان في القرآن الكريم، عاشور السيد، القاهرة، دار غريب، ٢٠٠٢م، ص٣٣.
(٢) السابق، ص٣٩.
(٣) لسان العرب، دار صادر ــ بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ١٠/١٦٦ (س و ق).
(٤) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي التهانوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧، ٤/٢٧.
(٥) نظرية السياق القرآني (دراسة تأصيلية دلالية نقدية)، المثنى عبد الفتاح محمود، عمان، الأردن، دار وائل للنشر، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٤.

"لا يتبدي إلا من خلال دراسة سلسلة الكلام وتتابعه، فهو يكشف عن نظام الكلام وتناسقه وترابطه"(١).

ويُعد مصطلح (السياق) في الدراسات اللغوية الحديثة من المصطلحات العصية على التحديد الدقيق وإن كان يمثل نظرية دلالية من أكثر نظريات علم الدلالة (Semantic) تماسكًا وأضبطها منهجًا(٢).

أهمية السياق:

يقوم السياق في أحيان كثيرة بتحديد الدلالة المقصودة من الكلمة في جملتها، ومن قديم أشار العلماء إلى أهمية السياق أو المقام وتطلبه مقالاً مخصوصًا يتلاءم معه، وقالوا عبارتهم الموجزة الدالة "لكل مقام مقال"، كما أن الكلمة لا معنى لها خارج السياق الذي ترد فيه، وربما اتحد المدلول واختلف المعنى طبقًا للسياق الذي قيلت فيه العبارة أو طبقًا لأحوال المتكلمين والزمان والمكان الذي قيلت فيه(٣).

النظرية السياقية:

تُعد النظرية السياقية إحدى النظريات الرائدة في مجال تحليل الدلالة، فهي تنطلق من مبدأ أن تحليل دلالة الكلمة يحتاج إلى تحديد السياقات التي ترد فيها، فهي ترى أن المدخل المعجمي للكلمة لا يمكن أن يعبر بصورة دقيقة وشاملة عن دلالة هذه الكلمة، حيث إن اللفظ المفرد حسب رأيها لا يحمل في ذاته من دلالته إلا صورة غائمة متعددة الوجود فإذا استقر هذا اللفظ ووضع في تركيب معين تحددت معالمه واتضحت وجهته الدلالية؛ وذلك لأن المعنى الذي تعطيه المعاجم اللغوية يخضع للتغير والتحول الاجتماعي بواسطة، العلامات اللسانية التي هي في حقيقتها اجتماعية بالطبع، ومن هذا المنطلق فإن كل علامة لسانية تحتوي على مستويين، هما:

---

(١) دلالة السياق في القصص القرآني، محمد عبدالله العبيدي، صنعاء، وزارة الثقافة، (د.ط)، ٢٠٠٤م، ص٢٣.

(٢) البحث الدلالي عند الأصوليين، د. محمد يوسف حبلص، مكتبة عالم الكتب، ط١، ١٤١١هـ ـ١٩٩١م، ص٢٨.

(٣) النحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي)، د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، ط١، ١٤٢٠هـ ـ٢٠٠٠م، ص٣٣، ٣٦.

أ) مستوى المعنى المكتسب والمقبول: وذلك كما تنص عليه المعاجم ويطلق على هذا النوع من المعنى اسم الدلالة المعجمية.

ب) مستوى المعنى الإضافي: أو الطفيلي؛ لأنه يضاف إلى المعنى الرسمي الذي يمثله المعجم، ويطلق عليه الدلالة السياقية(١).

وانطلاقًا من هذين المستويين ترى النظرية السياقية أن المعنى الكامل هو الذي تعطيه الكلمة، وهي داخل السياقات المختلفة التي توجد داخلها، فدلالة الألفاظ لا تدرك وهي منعزلة عن السياق، وإنما من خلال موضعها في النص، ويطلق العلماء الغربيون على أتباع هذه النظرية بـ"المدرسة الاجتماعية الإنجليزية"؛ وذلك لأن رائدها هو اللغوي الإنجليزي فيرث (Firth) والذي أعطى أهمية كبرى للوظيفة الاجتماعية للغة، فهو يرى أن معنى الكلمة ودلالتها لا تنكشف إلا من خلال إدخالها ضمن سياقات مختلفة، ولم يعتبر الكلمة مجرد وسيلة للتعبير عن الفكر كما كانت تعرف قديمًا، ولذا فهو يؤَكد بأن "المعنى لا يتضح إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة"(٢)، وقد فرق فيرث بين خمسة وظائف أساسية مكونة للمعنى، وهذه الوظائف هي: الوظيفة الصوتية، الوظيفة الصرفية، الوظيفة المعجمية، الوظيفة التركيبية والوظيفة الدلالية، وتحدد كل وظيفة من هذه الوظائف في إطار منهج يعرف بمنهج الإبدال "ولا يظهر معنى العنصر اللغوي على أي مستوى من هذه المستويات الخمسة إلا بتميزه السياقي عن مقابلاته التي يمكن أن تقع موقعه في ذلك السياق، فإذا لم يكن ثمة بديل سياقي ممكن لذلك العنصر اللغوي فلن يكون له معنى"(٣)، فقد أراد فيرث بهذا التقسيم إظهار أن السياق هو العنصر الأساس لإدراك دلالات الكلمة على جميع هذه المستويات والوظائف.

كما تبنى هذه النظرية عدد كبير من العلماء ومنهم هاليداي (Halidy)، وأنتوش (Antoch)، وسينكر (Sinkler)، وميشال (Michel)، وليونز

(١) محاضرات في اللسانيات التاريخية والعامة، زبير دراقي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت)، ص١٠١.
(٢) علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، مصر، ط٦، ١٩٩٦م، ص٦٨.
(٣) علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، مصر، ط٦، ١٩٩٦م، ص٦٨.

(Lyons)[١]، ويُعد ستيفن أولمان كذلك من بين الأسماء البارزة في النظرية السياقية عند الغرب، حيث إن هذه النظرية تمثل لديه حجر الزاوية في علم الدلالة[٢]، وهو يعرف السياق بقوله: "وكلمة السياق (Context) قد استعملت حديثًا في عدة معان مختلفة، والمعنى الوحيد الذي يهم مشكلتنا في الحقيقة هو معناه التقليدي، أي النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم، بأوسع معاني هذه العبارة"[٣]. والملاحظ من هذا القول هو أن أولمان شرح فكرة السياق بشكل موسع، فهو يرى أنه ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية فحسب، بل يشمل القطعة كلها والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل بوجه من الوجوه كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، ويرى أن العناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق به الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن[٤]. ومن هنا يتضح أن أصحاب هذه النظرية يدرسون الكلمات من خلال تحليل السياقات والمواقف التي ترد فيها، أو تبعًا لتوزيعها اللغوي.

المنهج السياقي:

يرى أصحاب المنهج السياقي أن "معظم الوحدات الدلالية تقع في مجاور وحدات أخرى، وأن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها"[٥]. فالسياق هو الذي يحدد قيمة الكلمة في أحوال ورودها في التركيب، فللكلمة من المعاني المتنوعة ما ليس في وسعنا أن نكشف المعنى المراد إلا بطريق ورودها في سياق معين، يقول جون لاينز: "لا

---

(١) مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد، لبنان، ٢٠٠٤م، ص٢٨.

(٢) علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق: دراسة تاريخية تأصيلية نقدية، فايز الداية، دار الفكر، سوريا، ١٩٩٧٦م، ص٢٢١.

(٣) دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة: د. كمال بشر، دار غريب للنشر، مصر، ط٢، ١٩٩٧م، ص٦٨.

(٤) علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر، ص٢١٨.

(٥) المصدر السابق، ص٦٨، ٦٩.

يمكن فهم أية كلمة على نحو تام بمعزل عن الكلمات الأخرى ذات الصلة بها، والتي تحدد معناها"[١].

وفي نظرية السياق ينتفي الحسن والقبح، أو المفاضلة بين الألفاظ، "فالكلمة الواحدة لا تحسن أو تقبح على الإطلاق، فالكلمة، الوحشية أو الغريبة تتسم بالحسن وتتصف بالجمال إذا اقتضاها الموقف، وأدَّت غايتها لدى المتلقي"[٢]. "فبعد انتقاء الكلمات الخاصة لموضوع معين تراعى الأبعاد والظلال والإيحاءات المختلفة للكلمات حتى تكون[٣]، "ملائمة للموضوع الذي سيقت له"[٤]. فنظرية السياق تتمثل بدراسة "الكلمة داخل التركيب أو التشكيل الذي ترد فيه؛ إذ لا يظهر معنى الكلمة الحقيقي، أو لا تتحدَّد دلالتها إلا من خلال السياق بضروبه المختلفة"[٥].

سياق القرآن الكريم:

إن فكرة المقام هي المركز الذي يدور حوله علم الدلالة، وهو الأساس الذي تبنى عليه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال[٦]، وقد حرص القرآن الكريم على اختيار الألفاظ بحسب سياق المقام[٧]،

---

(١) اللغة والمعنى والسياق، جون لا ينز، ترجمة: د. عباس صادق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٧م، ص٨٣.

(٢) المعني الشعري في التراث النقدي، د. حسن طبل، مكتبة الزهراء، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٩٦١، وينظر: علم الدلالة: دراسة وتطبيقًا، د. نور الهدى لوشن، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ص١٠٢.

(٣) المصدر السابق، ص١٠٢.

(٤) علم المعاني، د. درويش الجندي، دار نهضة مصر، القاهرة، ص٨، وينظر: الزينة في الكلمات الإسلامية، الرازي (أحمد بن أحمد بن أحمد أبو حاتم الرازي، ت٣٢٢هـ)، تحقيق: حسين بن فيض الله الهمداني، دار الكتاب بمصر، ١٩٥٧م، ٦٨/١.

(٥) علم الدلالة: دراسة وتطبيقًا، ص٩٥.

(٦) سياق المقال: يمثل السياق اللغوي وعناصره: الوحدات الصوتية والصرفية والكلمات التي يتحقق بها التركيب والسبك، وطريقة ترتيب هذه العناصر داخل التركيب، وطريقة الأداء اللغوي المصاحبة للجمل، أو ما يطلق عليه التطريز الصوتي. (ينظر: أثر الوقف على الدلالة التركيبية، محمد حبلص، دار الثقافة العربية، ١٤١٤هـ ـ١٩٩٣م، ص١٥ـ١٧).

(٧) سياق المقام: كل الأحوال والظروف والملابسات التي تصاحب النص وتحيط به نطقًا أو كتابة (ينظر: علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، د. محمود السعران، ط٢، دار الفكر العربي، ١٤١٧هـ ـ١٩٩٧م، ص٣٣٨، ٣٣٩).

كما تتركز أهمية سياق الحال أو المقام في الدرس الدلالي في فوائد منها: الوقوف على المعنى، وتحديد دلالة الكلمات، وإفادة التخصيص، ودفع توهم الحصر، ورد المفهوم الخاطئ ... وغيرها(١).

وبهذا فالسياق القرآني يتسم عن السياقات البشرية بسمات عدة، منها:

- (ضبط السياق القرآني لَفَهْمِ المتلقي، فالسياق هو صاحب السلطة في تحديد دلالة الألفاظ ومعانيها المقصودة، فهو الضابط لفهم المتلقي، ذلك أن الألفاظ إذا تركت على عواهنها دون عقال، حملت ما يراد وما لا يراد من معان، لذا كان السياق القرآني مُقيدًا ومحددًا للمعاني.
- عدم قابلية السياق القرآني للتفكيك أو التجزيء، فالقرآن يتسم بالترابط والتشابك بين آياته، فلا انفصال ولا انقطاع، وذلك يعود لترابط المعاني وتتابعها ــ ولا ريب ــ فالقرآن كلام واحد وسياق متواصل من أوله إلى آخره.
- مرونة السياق القرآني وحيويته، إذ يتمتع باحتمالية عدة معان، وذلك أن دلالته متنوعة، ومرونة السياق مظهر إيجابي يدعو إلى إذكاء عقل المجتهد، وعدم قصره على معنى واحد لا غير، وفي الوقت نفسه يضبط بضابط السياق؛ إذ يعطيه مجالاً محددًا في المعاني والمفاهيم، وهذه المرونة والحيوية هي ما عُرف فيما بعد بعلم التأويل)(٢).

إن الاهتمام بالسياق القرآني وأثره في بيان الدلالة إذًن واجب على من عزم النظر في كتاب الله، وإلا كان النظر قاصرًا؛ فالسياق له الأثر الأكبر والقيمة العظمى في تحديد المعاني وفهم الكلام، وذلك أن اللفظة (مفردة) تحمل معنى مستقلاً يخصها، فإذا انساقت في سياق معين حملت أوجهًا من المعاني، والدلالة اللغوية بشقيها الإفرادي والتركيبي ضابط لفهم السياق، كما أن دلالة العقل

ويطلق على سياق المقام أكثر من مصطلح، منها: سياق الحال، مقتضى الحال ــ وهو مصطلح قديم ــ والماجريات أو سياق الموقف، وتقف هذه المصطلحات في مقابل مصطلح سياق المقال (ينظر: علم اللغة المعاصر: مقدمات وتطبيقات، د. يحيى عبابنة، د. آمنة الزعبي، دار الكتاب الثقافي، الأردن، ١٤٢٦هـ ــ٢٠٠٥م، ص٣٧).

(١) سياق الحال في الدلالة (تحليل وتطبيق)، د. عوض حيدر، مكتبة النهضة المصرية، ص٣٠ــ٥٢.

(٢) نظرية السياق القرآني، ص٥٤.

والحس ضابطة في فهم السياق القرآني، فلا يجوز حمل الكلام على ما يخالفهما[١].

وبعد هذه المعطيات، سوف ينتقل البحث بالدراسة إلى صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان من القرآن الكريم باطنة وظاهرة؛ لتظهر أثر قرينة السياق في جوانبها المتنوعة، نبدأها بالحديث عن صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان الباطنة، ثم نشفعها بالحديث عن صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان الظاهرة، يتلوهما الحديث عن التعبير الحركي لصفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان فأقول وبالله التوفيق:

المبحث الأول
صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان الباطنة

الاقتران اللفظي[٢]، هو مقياس من مقاييس السياق، ولم يكن القدماء ليغفلوا هذه الظاهرة، بل أحسوا أن الألفاظ تميل إلى الاقتران بألفاظ أخرى يلتمسونها من كلام العرب "فقد خصص العرب ألفاظًا لألفاظ، وقرنوا كلمات بأخرى، ولم يقرنوها بغيرها، ولو كان المعنى واحد"[٣].

والاقتران اللفظي يحسم قضية كثير من المترادفات، كانت له من العناية عند المحدثين أكثر مما هو عند القدماء، فقد عالج اللغوي البريطاني (فيرث) العلاقات البنيوية السياقية بين المفردات المعجمية في ضمن "ما أطلق عليه (بالاقتران اللفظي)، أو (التصاحب اللفظي)، إذ وجد أن المفردات تتجه إلى الاقتران مع مفردات معينة في العبارات أكثر من غيرها"[٤]، مما وقع عليه فيرث سبقه به

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٦ وما بعدها.

(٢) يقصد بالاقتران: "مجيء ألفاظ بعينها في التراكيب المختلفة في مواضع متباينة أو مجيء مركبات في تراكيب". (ينظر: النظام القرآني، عالم سبيط النيلي، بغداد، ١٤٢٤هـ ـ٢٠٠٣م، ص٢٦).

(٣) فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دار الفكر الإسلامي الحديث، ٢٠٠٠م، ص٣١٥، ٣١٦.

(٤) التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، عودة خليل أبو عودة، مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٤٠٥هـ ـ١٩٨٥م، ص٧٧.

القدماء، ثم تتابعت الدراسات في ذلك، فمن أصحاب النظرية السياقية من ركزّ في قضية توافق الوقوع، أو ما يسمى (بالرصْف)، وهذه النظرية امتداد لنظرية فيرث السابقة، يقول أولمان: "هناك تطور مهم للمفهوم العلمي للمعنى تمثَّل في دراسة طرق الرصف أو النظم، وهو ما ركزَّ عليه فيرث وأتباعه"(١)، وقد عرف الرصف بأنه: "الارتباط الاعتيادي لكلمة ما في لغة ما بكلمات أخرى معينة"(٢).

ولقد قال عبدالقاهر في رسالة الشافعية في وجوه الإعجاز مؤكدًا ما سبق: "اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعًا من اللفظ هو به أخص وأولى، وضروبًا من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلى، ومأخذًا إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب، وبالقبول أخلق، وكان السمع له أوعى، والنفس إليه أميل"(٣).

ولقد راعى علماء البيان القرآني مناسبة المفردات للمقام الذي تأتي فيه، وأن المعنى إنما يطلب من اللفظة في مقامها، يقول الخطيب الإسكافي (ت٤٢٠هـ): "إذا أورد الحكيم، تقدست أسماؤه، آية على لفظة مخصوصة، ثم أعادها في موضع آخر من القرآن، وقد غيّر لفظة عما كانت عليه في الأولى، فلابُدَّ من حكمة هناك تُطلب، وإن أدركتموها فقد ظفرتم، وإن لم تدركوها فليس لأنه لا حكمة هناك، بل جهلتم"(٤)، واتبع هذا النهج كثيرًا من المحدثين فبينوا تفرد المفردة القرآنية بمكانها من حيث ملائمتها للسياق الذي تكون فيه، فقد لا تكون للكلمة مزية في كلامنا، "فإذا قرأناها في الآيات وجدنا أنها تتجاوز كلَّ تعابيرنا، متمكنة من موضعها بمنزلة اللبنة المطلوبة للبناء الكلي"(٥)، ولقد استعمل القرآن الكريم صفات كثيرة اتصف بها أعضاء خلق الإنسان الباطنة، وسوف أعرض فيما يأتي هذه الصفات مرتبة ترتيبًا ألفبائيًا:

---

(١) علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر، ص٧٤.
(٢) المصدر السابق، ص٧٤.
(٣) الرسالة الشافعية في وجوه الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت:٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، في ذيل دلائل الإعجاز، طبعة المدني، ١٤٠٤هـ ـ١٩٨٣م، ص٥٧٥.
(٤) درة التنزيل وغرة التأويل، الإسكافي (محمد بن عبدالله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي، ت:٤٢٠هـ)،دراسة وتحقيق وتعليق: محمد مصطفى آيدين، الناشر: جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي، ط١، ١٤٢٢هـ ـ٢٠٠١م، ص١١.
(٥) جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، أحمد ياسوف، دار المكتبي، دمشق، ط١، ١٤١٥هـ ـ١٩٩٤م، ص٢٩٦، ٢٩٧.

الأرحـــــام:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾(١).

يدل الأصل اللغوي (رحم) على "الرقة والعطف والرأفة"(٢).

يطلق الغيض في اللغة على: النقص والغور والذهاب والنضوب، فقد جاء في المفردات: "وغِيضَ الماءُ، وما تغِيضُ الأَرحامُ: أي تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض، والغَيْضَةُ: المكان الذي يقف فيه الماء فيبتلعه"(٣). ووفق قواعد التفسير القاضية بتفسير القرآن بالقرآن، فإن معنى الغيض في آية سورة الرعد يفسر بالغيض الوارد في آية سورة هود: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾(٤)، وردت لفظة (غيض) في سياق الحديث عن خلق الله سبحانه وتعالى للإنسان الذي لم يكن عبثًا، بل خلقه للعبودية، فتارة يستقر في رحم المرأة ولا تسقطه، وتارة تسقط، وقد دار تفسير العلماء لغيض الأرحام حول معنيين، الأول: الدم الذي ينزل على المرأة الحامل، والثاني: السقط أو السقط الناقص، أو ما تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض(٥)، فظهرت دلالة السياق، وظهر أثرها في تحديد اللفظ، فكانت كلمة (تغيض) مناسبة لهذا السياق.

---

(١) الرعد: الآية (٨).

(٢) مقاييس اللغة ٤٩٨/٢ (ر ح م).

(٣) المفردات في غريب القرآن ٦١٩/١ (غ ي ض).

(٤) هود: من الآية (٤٤).

(٥) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (محمد بن جرير بن يزيد، ت:٣١٠هـ)، تحقيق: تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ ـــ ٢٠٠٠م، ٣٥٨/١٦، مفاتيح الغيب، الرازي (أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن الرازي، ت:٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، ١٤/١٩، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (ناصر الدين أبو سعيد عبدالله الشيرازي، ت:٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، ١٨٢/٣.

واستعيرت الرحم لأصحاب القرابة؛ لأنها سبب فيهم[١]، كما جعل قطع الرحم كناية عن قطع أواصر القربى، وتمزيق أسباب القرابة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[٢].

الصـــــدر:

يبين ابن منظور الدلالة اللغوية للجذر (ص د ر) بقوله: "الصَّدْرُ أعلى مُقدَّم كُلِّ شَيءٍ وأَوَّله،حتى إنهم ليقولون صدْر النَّهَارِ واللَّيلِ،وصَدر الشِّتاءِ والصَّيْفِ"[٣]، والصدر من جسم الإنسان "ما انطبق عليه الكتفان، وجمعه صُدُور"[٤].

ورد الصدر في القرآن الكريم منفردًا ومجموعًا (صدور) في تسعة وعشرين موضعًا، ومن أحواله في القرآن الكريم:

رهبة الصـــــدور:

قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[٥].

الرهبة في اللغة: "الراء والهاء والباء أصْلانِ: أحَدُهُما يُدلُّ على خَوْفٍ والآخرُ على دِقَّةٍ وخِفَّةٍ، فالأوَّلُ الرَّهْبَةُ: مخافة مع تحرّز واضطراب، والأصل الآخر: الرَّهْبُ: الناقةُ المهزولَةُ"[٦].

"لما كان المقصود من ذِكرْوَهْنِ المنافقين في القتال تشديدَ نفس النبي ﷺ وأنفس المؤمنين حتى لا يرهبونهم ولا يخشوا مساندتهم لأهل حرب المسلمين أحلاف المنافقين قريظة وخيبر، أعقب ذلك بإعلام المؤمنين بأن المنافقين وأحلافهم يخشون المسلمين خشية شديدة وصف شدتها بأنها أشد من خشيتهم الله تعالى، فإن خشية جميع الخلق من الله أعظم خشية، فإذا بلغت الخشية في قلب

---

(١) ورد هذا المعنى في: النساء: من الآية (١)، الأنفال: من الآية (٧٥)، الأحزاب: من الآية (٦)، الكهف: من الآية (٨١)، الممتحنة: من الآية (٢).
(٢) محمد: الآية (٢٢).
(٣) لسان العرب ٤٤٥/٤ (ص د ر).
(٤) المخصص ١٥٣/١ (ص د ر).
(٥) الحشر: الآية (١٣).
(٦) مقاييس اللغة ٤٤٧/٢ (ر ه ب)، والمفردات ٣٦٦/١ (ر ه ب).

أحد أن تكون أعظم من خشية الله فذلك منتهى الخشية"[١]، إذن السياق في الآية سياق استعراض وتذكير للإنسان على أن يحذر عواقب الكفر والجحود.

شرح الصدور:

ورد الصدر في سياق انشراح الصدر في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾[٢].

في سياق هذه الآية بيان لذكر من انتفع بالقرآن فازداد نورًا على نور، كما أن فيها بيانًا لمن أعرض عنه فعاقبه الله بقسوة قلبه، وقد بدأت الآية بالاستفهام الإنكاري المُسلّط على من يُسوي بين الفريقين، فينكره سبحانه ــ على مَنْ يظن ألا فرق بين من يشرح صدره للإسلام، ويعمل بأوامره وينزجر عن نواهيه، فهو قرير العين مطمئن القلب، وبين من يعرض ويقسو قلبه لهذا الذكر، والمعنى أن الله ــ سبحانه ــ يقول منكرًا: "أفمن شرح الله صدره فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته"[٣]، "من موصولة مبتدأ، والخبر محذوف؛ وتقديره: مثل من قسا قلبه، بدلالة قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾، وهذا من دلالة اللاحق"[٤]، كما أن في في حذفه ازدراء به، وتحقيرًا لشأنه، إذ ليس أهلاً أن يُذكر في مقابل من انشرح صدره.

ثم بين ــ سبحانه ــ أن سبب هذا الانشراح ومردُّه إلى الإسلام بما فيه من شرائع وأحكام توافق العقل والفطرة، لذا فإن النفوس تؤمن به وترضاه، ومما يسترعي الانتباه في هذه الآية أن جاء اختيار لفظة الصدر في قوله (صدره) دون القلب، "والسر في شرح الصدر؛ لأن توسعته وجعله محلاً للإسلام دون القلب الذي فيه يدل على شدته، وإفراط كثرته التي فاضت حتى ملأت الصدر فضلاً عن

---

(١) التحرير والتنوير، "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، لابن عاشور (محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي، ت:١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م، ١٠١/٢٨، ١٠٢.

(٢) الزمر: من الآية (٢٢)، وبقية المواضع في الآيات: الشرح: الآية (١)؛ طه: الآية (٢٥)؛ الأنعام: الآية (١٢٥).

(٣) معاني القرآن وإعرابه، الزَّجَّاج (أبو إسحاق إبراهيم بن سري، ت:٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط١، ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م، ج٤، ص٣٥١.

(٤) الزمر: من الآية (٢٢)؛ وينظر: تفسير التحرير والتنوير ٣٧٩/٢٣.

القلب"[١]، كما أن إسناد الانشراح إلى الله دليل على هذا الشرح، ثمَّ على خير الوجوه وأكملها لِمَ لا وهو شرح حكيم عليم بهذه القلوب وما يُصلحها[٢].

وفي هذا الحرف (على) بدلالته ــ على الاستعلاء ــ استعارة تبعية، فقد استعير الاستعلاء لمن شرح الله صدره للإسلام، وأقبل عليه، ولمن تمكن من هذا النور، وثبت عليه، وذلك بجامع الاستعلاء في كلٍ، ودُلّ على هذه الاستعارة بالحرف الدال على الاستعلاء، وتكمن بلاغة الاستعارة أن فيها دلالة على أن من يشرح الله صدره للإسلام قد استعلى على هذه النور، وتمكن منه فكأنه راكب على جواد يصرِّفه حيث شاء، ويُركضه حيث أراد[٣]، وذلك لمزيد قوته وظهور حجته وسطوع برهانه.

"أفمن عرف الله أنه من أهل اللطف فلطف به حتى انشرح صدره للإسلام ورغب فيه وقبله كمن لا لطف له فهو حرج الصدر قاسي القلب، ونور الله هو لطفه "وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقيل: يا رسول الله كيف انشراح الصدر؟ قال: إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح فقيل: يا رسول الله فما علامة ذلك؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزول الموت"[٤]. وهكذا فقد حمل لفظ (شرح) أكثر من معنى، وهي: قبول المسلم هدي الإسلام ومحبته والتزام تعاليمه، وتأكد المعنى المراد عن طريق السياق، وصار السياق في هذا منتجًا مستقلاً للدلالة، دون أن تكون الألفاظ أو طبيعة التركيب الوصفي مساعدة له.

شفاء الصدور:

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي (شهاب الدين محمود ابن عبدالله الحسيني الآلوسي، ت١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط ١٤١٥هـ، ٢٤٧/١٢.

(٢) المصدر السابق ٢٥٨/٢٣.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ت:٨٨٥هـ)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة،مصر، ط١، ١٣٨٩هـ ــ١٩٦٩م، ٢٥٧/٢٣.

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي (عبدالرحمن بن أبي بكر جلال الدين، ت:٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر ــ بيروت ٢١٩/٧.

قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾(٢).

من الدلالات الحسية لجذر (ش ف ي) قولهم: "شفا البئر والنهر: طَرَفه. ويضرب به المثل في القرب من الهلاك"(٣)، وذكر ابن السكيت أنه: "يقال للرجل عند موته، وللقمر عند امِّحاقِه، وللشمس عند غروبها؛ ما بقي من فلان إلا قليل، وما بقي إلا شفا، وكذلك ما بقى من القمر إلا شَفَا، وما بقي من الشمس إلا شفا"(٤). والملاحظ أن لهذه المادة دلالة ضدية، وهي نوع من الانتقال المجازي للتفاؤل، فالأصل: القرب من الهلاك، ثم انتقل بها إلى الدلالة على البرء والسلامة(٥). والقرآن الكريم قد استعمل الدلالة الثانية في هذه الآية، واختيار القرآن الكريم للفظ (يشفي) للتعبير عن إدراك الثأر له دلالته، فلم تكن النجاة مقصد الحوار والسياق، وما اقتضى الأمر سرعة في إيقاعها، ولا مفاجأة في وجودها، بل اقتضى دوام النجاة، فاستلزم تتابع الزمن بالنجاة تتابعًا في صيغة الفعل (المضارع) للدلالة على الدوام.

ضيق الصـــــدور:

قال تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾(٦)، ويقول الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(٧).

---

(١) التوبة: الآية (١٤).
(٢) يونس: من الآية (٥٧).
(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب، ت٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ٣/٣٣٠.
(٤) المنجد في اللغة، كراع الهنائي، تحقيق: د. أحمد مختار عمر، و د. ضاحي عبدالقادر، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٢٨٢.
(٥) الصحاح ١/٣٨٩ (ش ف ي).
(٦) الشعراء: من الآية (١٣)، وبقية المواضع في الآيات: [الأعراف: الآية (٢)؛ الحجر: الآية (٤٧)؛ هود: الآية (١٢)].
(٧) الأنعام: الآية (١٢٥).

لجأ القرآن الكريم إلى الأسلوب الجمالي في وصف هداية الإيمان بشق الصدر وانشراحه[١]، ووصف ضلال الفكر بالصعود في السماء فيضيق القلب ويصبح التنفس صعبًا. يقول ابن عاشور: "مُثِّل حال المشرك حين يُدعي إلى الإسلام أو حين يخلو بنفسه فيتأمل في دعوة الإسلام، بحال الصاعد، فإن الصاعد يضيق تنفسه في الصعود، وهذا تمثيل هيئة معقولة بهيئة متخيلة؛ لأن الصعود في السماء غير واقع"[٢]، وقرينة السياق في كلمة (يصعد) كإشارة لعلامة كبرى دالة على الضيق الذي يلحق بالكافر بسبب ضلاله، فيصَّعَّد "بتشديد الصاد وتشديد العين على أنه يتفعَّل من الصعود، أي تكلف الصعود، فقلبت تَاء التفعل صادًا؛ لأن التاء شبيهة بحروف الإطباق، فلذلك تقلب طاء بعد حروف الإطباق في الافتعال قلبًا مطردًا، ثم تدغم تارة في مماثلها أو مقاربها"[٣].

فمن الظروف المناسبة للإدغام أن يتقارب مخرجا الحرفين المتتاليين، أو يتفق هذان الحرفان في الصفة، والمقصود بالصفة طريقة النطق، كالشدة والرخاوة نحو: انعت صابرًا (ت ص = ص ص)، وليس يخفى ما للكمية من صلة في التفريق بين الصفِة والصيغة، وبين الكلمة والكلمة، إذن التعارض بين قواعد النظام ومطالب السياق أمر مألوف في اللغات جميعًا، وهو مألوف في اللغة العربية أيضًا[٤]، فتوافق الحال واللفظ، وظهرت دلالة السياق، ولزم حينئذ الفعل (يصعّد) الإدغام.

كم هذه الآية بليغة، وكم هي معجزة، إذ أوضحت ظاهرة حيوية وحقيقة فضائية لم يتوصل العلماء إلى معرفتها إلا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين الميلاديين، وهي الضيق والاختناق كلما ارتفع الإنسان في طبقات الجو، أي: في السماء، والسماء هي كل ما علاك، وهو المعنى المعروف لمعظم الناس، وهو من المعاني الصحيحة لهذه الكلمة القرآنية، إذ توصل العلماء أن الصعود في

---

(١) روح المعاني ٤/٢٦٦.
(٢) التحرير والتنوير ٨/٦٠.
(٣) المصدر نفسه ٨/٥٩.
(٤) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، د/ تمام حسان عمر، عالم الكتب، ط٥، ١٤٢٧هـ ـ٢٠٠٦م، ص٢٧٩ـ٢٩١.

الجو يسبب ضيقًا في التنفس لأسباب تتمثل بانخفاض نسبة الأكسجين في الارتفاعات العالية حتى تنعدم نهائيًا، وانخفاض الضغط الجوي حيث يؤدي ذلك إلى نقص مرور الهواء عبر الرئتين إلى الدم. كما يؤدي إلى تمدد غازات المعدة والأمعاء فيضغط ذلك على الرئتين ويعيق تمددها، وذلك يؤدي إلى ضيق وصعوبة التنفس، مع برودة الجو وانعدام الوزن(١)، وسبحان من هذا كلامه.

وقوله تعالى: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾(٢).

يقال في اللغة: حصر ضيق عليه وأحاط به والحصر الضيق، وأيضًا المحبس، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾(٣)، وحصر صدره أي ضاق، وقوله عز وجل: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾(٤)، "أي ضاقت صدورهم عن قتالكم"(٥)، والحصر أقوى دلالة على الانحباس والضيق، "حصرت الرجل أي حبسته وأحصره المرض إذا منعه من السير والحصير من هذا سعي؛ لأن بعضه حبس على بعض"(٦). والذي يبدو من السياق وصف القرآن الكريم صدور الأنبياء الأنبياء بالضيق وصدور الكفار بالحصر، فجاء السياق بصيغة الفعل، وهذا تناغم بين سرعة الانتقال من حال إلى حال؛ لأن السياق اقتضى ذلك.

نزع مكنون الصدور:

قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾(٧).

---

(١) ينظر: مع الطب في القرآن الكريم، عبدالحميد دياب، مؤسسة علوم القرآن الكريم، دمشق، ١٩٨٢م، ص٢١.

(٢) النساء: من الآية (٩٠).

(٣) الإسراء: من الآية (٨).

(٤) النساء: من الآية (٩٠).

(٥) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي (أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق، ت٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ: نظير الصاعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م، ٣٥٧/٣.

(٦) معاني القرآن، النحاس (أبو جعفر أحمد بن محمد، ت٣٢٨هـ)، تحقيق: محمد علي الصابوني، الصابوني، الناشر: جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩هـ، ٣٩٤/١.

(٧) الأعراف: من الآية (٤٣).

نزع الشيء: "جَذَبهُ من مقرِّه كَنَزْعِ القَوْس عن كبده، ويُستعمل ذلك في الأعراض"(١). "نَزَع الشيءَ يَنْزِعُه نَزْعًا فهو مَنْزوعٌ ونزِيعٌ وانتزعه فَانْتزَعَ، اْقتَلَعه فاْقتَلع"(٢). "والنزع حقيقته: خلع الثوب عن الجسد، واستعمل هنا على طريقة الاستعارة، والغل: "الحقد والإِحْنَةُ والضغن التي تحصل في النفس عند إدراك ما يسؤوها من عمل غيرها"(٣).

ونزع الغل من قلوب أهل الجنة: "هو إزالة ما كان في قلوبهم في الدنيا من الغل عند تلقي ما يسوء من الغير بحيث طهَّر الله نفوسهم في حياتها الثانية عن الانفعال بالخواطر الشرِّية التي منها الغل، فزال ما كان في قلوبهم من غل بعضهم من بعض في الدنيا، أي أزال ما كان حاصلاً من غل، وأزال طباع الغل التي في النفوس البشرية بحيث لا يخطر في نفوسهم"(٤)، وقد يأتي لفظ الصدر في العبارة على سبيل التأكيد، ففي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾(٥).

التحصيل: "إخراج اللب من القشور كإخراج الذهب من حجر المعدن، والبرّ من التِّبن، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: أظهر ما فيها وجمع كإظهار اللبّ من القشر، أو كإظهار الحاصل من الحساب"(٦)، والصوت ﴿وَحُصِّلَ﴾ في سياق الوعيد، قد نلمس فيه نزع ما في الصدور من أسرار، واستخراج ما فيها من خبايا دون طواعية من أصحابها، وهذا ما أظهرته تشديد الصاد، فإذا شددت الصاد كانت دلالتها الصوتية وإرادتها المعنوية أوضح لزومًا، وأشد استظهارًا، وأكثر

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ت٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية، دمشق ــ بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ٧٩٨/١ (ن ز ع).

(٢) لسان العرب ٣٤٩/٨ (ن ز ع).

(٣) التحرير والتنوير ١٣١/٨.

(٤) التحرير والتنوير ١٣١/٨.

(٥) العاديات: الآيات (٩)، (١٠).

(٦) المفردات للراغب ٢٤٠/١ (ح ص ل).

لمعانًا[١]، وبذلك تكون الكمية عظيمة الأهمية في مجال القيم الخلافية في اللغة، ومن ثمَّ تكون ذات صلة عظيمة بالمعنى[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ﴾[٣].

أقرَّ بعض المفسرين أن محل البواعث والضمائر هو القلب[٤]، "وإنما قال في في صدوركم، ولم يقل في قلوبكم؛ لأن القلب في الصدر، فجاز إقامة الصدر مقام القلب"[٥]. والفائدة من ذكر الصدور في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٦].

قال الزمخشري: "فإن قلت: أي فائدة في ذكر الصدور؟ قلت: الذي قد تعور، واعتقد أن العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو أن تُصاب الحدقة بما يطمس نورها، واستعماله في القلب استعارة ومَثَل، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلب لا الأبصار ..."[٧].

ومما يدل على أن الصدور مختزن الأسرار المكنونة من القوى النفسانية، اقتران (الإخفاء)، و(الإكنان) بها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ﴾[٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[٩]، ومما يثبت يثبت أن المراد من مضمرات الصدر تلك القوى النفسية المجبولة على المخالفة

---

(١) ينظر: الخصائص ٢/١٥٩ــ١٦٢.
(٢) اللغة العربية ــ معناها ومبناها ــ ص٣٠٠.
(٣) آل عمران: من الآية (٢٩)، والدلالة نفسها في: آل عمران: من الآية (١١٨)، النمل: من الآية (٧٤)، غافر: من الآية (١٩)، والناس: من الآية (٥).
(٤) ينظر: روح المعاني ١٥/٤٤٦.
(٥) أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم: دراسة لغوية معجمية ودلالية، د/ سيد أحمد علي الصاوي، مطبعة العدوي، ط١، ١٤٢٣هـ ــ٢٠٠٢م، ص٢٧٥.
(٦) الحج: من الآية (٤٦).
(٧) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، جار الله، ت٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي ــ بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ٣/١٦٢.
(٨) آل عمران: من الآية (٢٩).
(٩) النمل: من الآية (٧٤).

واتباع الهوى أن مقام الآيات السابقة مقام تحذير وتنبيه على علمه سبحانه بتلك القوى النفسية، وأن يحذر الإنسان عواقب الكفر والجحود.

الفـــــؤاد:

فأد: لفظ يدل في أصل اللغة على حُمَّى وشدة حرارة، ومن ذلك: "فَأَدْتُ اللَّحْمَ: إذا شويته، ولحمٌ فَئيدُ، أي مشويٌّ"(١)، والفؤاد بعدِّه جارحه هو "وسط القلب، وقيل: غشاؤه"(٢)، وإنما سمي الفؤاد فؤادًا لتفؤده، أي توقده وشدة حرارته(٣)، وفيما يلي الحديث عن أبرز وأدق ما ورد في القرآن الكريم من أوصاف للفؤاد:

صدق الفـــــؤاد:

قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾(٤).

قال الفرّاء: "ما كذب الفؤاد" فؤاد محمد ﷺ ، "ما رأى" يقول: قد صَدَقه فؤاده الذي رأى"(٥)، واللفظ عند الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، وعند القرطبي (ت٦٧١هـ) فالأول يرى: "ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام، أي: ما قال فؤاده لما رآه: لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذبًا؛ لأنه عرفه يعنى: أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه، ولم يشك في أن ما رآه حق"(٦)، وزاد القرطبي: "لم يكذب قلب محمد ﷺ ليلة المعراج، وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية، وقيل: كانت رؤية حقيقة بالبصر،

---

(١) لسان العرب ٣٢٨/٣ (ف أ د).

(٢) ينظر: الفائق في غريب الحديث والأثر، الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعرفة ــ لبنان، ط٢، ٨٣/١، ولسان العرب ٣٢٩/٣ (ف أ د).

(٣) ينظر: خلق الإنسان في اللغة، لأبي محمد الحسن بن أحمد بن عبدالرحمن، تحقيق: د. أحمد خان، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت، ١٤٠٧هـ ــ١٩٨٦م، ص٢٢٥.

(٤) النجم: الآية (١١).

(٥) معاني القرآن، للفرّاء (أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، ت٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، وآخرين، الناشر: دار المصرية للتأليف ــ مصر، ط١، ٩٦/٣، وينظر: إعراب القرآن للنحاس، وضع حواشيه وعلق عليه، عبدالمنعم خليل إبراهيم، الناشر: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط٢، ١٤٢١هـ، ١٨١/٤.

(٦) الكشاف ٤٢٠/٤.

والأمر الأول مروي عن ابن عباس، وفي صحيح مسلم أنه "رآه بقلبه"(١)، وهو قول أبي ذر وجماعة من الصحابة، والثاني قول أنس وجماعة"(٢) من الصحابة.

ويؤيده قول النبي ﷺ في أهل اليمن: "أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوبًا وأرق أَفْئِدَة"(٣)، فوصف الأفئدة بالرقة وفرَّقها عن القلوب(٤). ومما يدل على أن الفؤاد لطيفة الجسد أن الله سبحانه يخاطب الفؤاد من ذات النبي ﷺ في مواضع التثبيت لحمل الرسالة، والقرآن الكريم، وما رأى في ليلة المعراج، الكلِّ منها ثقيل في مواطن القوة من الجسد فكيف بالفؤاد ذلك اللطيفة المودعة في الجسد قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾(٦).

فزع الأفئدة:

قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي﴾(٧)، وقال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء﴾(٨).

الفزع في اللغة: "انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف"(٩)، والفؤاد أشد تألمًا بأدنى أذى يمسه حتى قيل: إن الفؤاد سريع التأثر بما يفجأ الإنسان من الفزع والخوف، وربما خرج من غشائه بفعل الفزع، فيموت الإنسان من ساعته(١٠)؛ لذا يقترن في القرآن الكريم بالفراغ والفضاء في مقام الفزع؛

---

(١) مسند الإمام مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت١٥٨/١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، ت٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ ــ١٩٦٤م، ٩٢/١٧.

(٣) مسند الإمام أحمد، دار صادر ــ بيروت ٢٥٢/٢.

(٤) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، (أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله ابن أحمد السهيلي، ت٥٨١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ــ١٩٩٧م، ٤٥١/٣.

(٥) هود: من الآية (١٢٠).

(٦) الفرقان: من الآية (٣٢).

(٧) القصص: من الآية (١٠).

(٨) إبراهيم: الآية (٤٣).

(٩) المفردات ٦٣٥/١ (ف ز ع).

(١٠) خلق الإنسان للزَّجَّاج (ت٣١١هـ) (من ضمن ثلاثة رسائل في اللغة)، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٣٨٣هـ ــ١٩٦٤م، ص٤٢.

لسرعة تأثره بالمواقف، فمقام الآيتين مقام فزع فعبّر بالفؤاد عن الفراغ والخلاء لسرعة تفؤده وحرارته، فقد قيل في قوم: "وأفئدتهم هواء": أنها "انتزعت حتى صارت في حناجرهم لا تخرج من أفواههم، ولا تعود إلى أمكنتها"(١)، وقيل أيضًا: إنها "متخرقة لا تعي شيئًا"، يعني من الخوف"(٢)، وقيل: "تزعت أفئدتهم من أجوافهم"، وقال الكسائي (ت١٨٩هـ) في قوله: "وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا"، "أي: ناسيًا ذاهلاً، كما يقال لمن لم تقض حاجته فرغ، وللميت قد فرغ"(٣).

ميل الأفئدة:

قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾(٤).

"صغا إليه يصغى ويصغو صغوًا وصُغُوا وصغًا: مال وكذلك صغي، وقوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ﴾، أي: ولتميلَ"(٥).

"ومعنى تصغى: تميل، يقال: صغى يصغى صغيًا، ويصغو صغوًا ــ بالياء والواو ــ ووردت الآية على اعتباره ــ بالياء ــ لأنه رُسم في المصحف بصورة الياء، وحقيقته الميل الحسي، يقال: صغى أي مال وأصغى أمال، ومنه أطلق: أصغى بمعنى أستمع؛ لأن أصله أمال سمعه أو أذنه، ثم حذفوا المفعول لكثرة الاستعمال، وهو هنا مجاز في الاتباع وقبول القول"(٦).

وقيل إن معناها في الآية: أي "ولتميل إلى ما ذكر من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين"(٧)، والملاحظ هنا في سياق الآية انتقال معنى (صغى) من الميل الحسي ليطلق على الميل القلبي (المعنوي) إلى ما يخالف أوامر الله سبحانه وتعالى من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين، وقد استخدم فيما يخص جارحة

---

(١) معاني القرآن، النحاس ٥٤٠/٣، ١٦٠/٥.
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري ٣٣/١٧، ٣٤.
(٣) معاني القرآن، النحاس ٥٤٠/٣.
(٤) الأنعام: الآية (١١٣).
(٥) لسان العرب ٤٦١/١٤ (ص غ ا).
(٦) التحرير والتنوير ١٢/٨.
(٧) الكشاف ٥٩/٢.

السمع دونًا عن باقي الجوارح، وارتبط هذا الأصل اللغوي في القرآن الكريم بميل القلوب، قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾(١).

وقد ذكر الزمخشري في معنى(صغت)"فقد وجد منكما ما يوجب التوبة، وهو ميل قلوبكما عن الواجب في مخالصة رسول الله ﷺ من حب ما يحبه وكراهة ما يكرهه..."(٢)، ولعل تعدد المعنى واحتماله من جهة وتحدده وتعينه من جهة أخرى هو الفارق الأساس بين الكلمة التي في المعجم واللفظ الذي في السياق(٣)؛ لهذا توافق اللفظ والمعنى في الآية، وظهرت دلالة اللفظ حسب ما يقتضيه السياق.

هوى الأفئـــــــــدة:

قال تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾(٤).

الفؤاد ألطف ما في الجسد على الإطلاق، لذا عُبِّر به عن جميع البدن؛ لأنه أشرف ما في البدن، والهُوِيُّ: "ذهاب في انحدار والهَوى ذهاب في ارتفاع"(٥). وقيل إن معنى (تهوى إليهم) تُسرع إليهم وتطير نحوهم شوقًا ونزاعًا"(٦) "والمراد: فاجعل أناسًا يهوون إليهم، فأقحم لفظ الأفئدة لإرادة أن يكون مسير الناس إليهم عن شوق ومحبة حتى كأن المسرع هو الفؤاد لا الجسد، فلما ذكر (أفئدة) لهذه النكتة حسن بيانه بأنهم من الناس فمن بيانية لا تبعيضية، إذ لا طائل تحته، والمعنى فاجعل، أناسًا يقصدونهم بحبات قلوبهم، وتهوى ــ مضارع هوى بفتح الواو ــ: سقط، وأطلق هنا على الإسراع في المشي استعارة، ولذلك عُدّى باللام دون على، والإسراع: جعل كناية عن المحبة والشوق إلى زيارتهم، والمقصود من هذا الدعاء تأنيس مكانهم بتردد الزائرين وقضاء حوائجهم منهم، والتنكير مطلق يُحمل على المتعارف في عمران المدن والأسواق بالواردين، فلذلك لم يقيده في الدعاء بما يدل على الكثرة اكتفاء بما هو معروف"(٧)، أما القيمة

---

(١) التحريم: من الآية (٤).
(٢) الكشاف للزمخشري ٥٦٦/٤.
(٣) اللغة العربية ــ معناها ومبناها ــ ص٣٢٥.
(٤) إبراهيم: من الآية (٣٧).
(٥) المفردات ٨٤٩/١ (هـ و ى).
(٦) الكشاف ٥٥٩/٢.
(٧) التحرير والتنوير ٢٤١/١٣، ٢٤٢.

الموقعية للسياق فتبدو عند التأمل في كلمة (إليهم) وتحديد المقصود من حرف اللام، فالمعنى الدلالي قد يتوقف أحيانًا على الوظائف التحليلية كدلالة الحرف باعتباره (مقابلاً استبداليًا) يؤثر على المعنى(١).

القلب(٢):

لقد استعمل القرآن الكريم صفات كثيرة ليدل على القلب، من أفعال يقوم بها، وخصائص تجعل منه عالمًا قائمًا بذاته، واتسعت معانيه وتعددت جوانبه، حتى لم يَعُد بإمكاننا حصره في المعاني العاطفية وحدها، أو في المعاني العقلية، بل إنه يتجاوز هذا، فهي صفات تتحدث عن جوانب كثيرة في النفس البشرية، بحيث تُشعرنا أننا أمام صورة من صور العقل، أو أمام العقل ذاته، وأحيانًا أخرى تشعرنا أننا أمام العاطفة والأحاسيس والمشاعر الوجدانية، وأحيانًا ثالثة نجد أنفسنا أمام جانب يجمع الجانبين العقلي والعاطفي، ويزيد عليهما عمقًا آخر(٣).

ووصف القلب في القرآن الكريم جاء في سياقات متعددة شمل العبد المؤمن والكافر، وسوف أعرض فيما يأتي هذه الصفات بحسب هذا الشمول، وهي مرتبة ترتيبًا (ألفبائيا) حسب صفاتها:

أولاً ــ صفات القلب المؤمن:

القلوب المؤلفة:

هذا تركيب قرآني ورد مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾(٤). وورد تأليف القلوب بصيغة الفعل في آيتين آخرين، هما: قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ

(١) اللغة العربية ــ معناها ومبناها ــ ص٣٥٣.
(٢) ورد القلب في القرآن الكريم في مائة واثنتين وعشرين آية من آياته في سياقات مختلفة، يؤصل ابن منظور دلالة الجذر (ق ل ب) بقوله: "القلب تحويل الشيء عن وجهه، قلبه يَقْلبه قَلْبًا وقلب الشيء: حوله ظهرًا لبطن، وجعل قلبه في ظاهره، أي قلبه. والقلب: مُضْغة من الفؤاد مُعلّقة بالنّياط". ينظر: لسان العرب ٦٨٧/١، ٦٨٨ (ق ل ب).
(٣) مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، محمد علي الجوزو، ط٢، ١٩٨٠م، ص١٨٧.
(٤) التوبة: من الآية (٦٠).
(٥) آل عمران: من الآية (١٠٣).

قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْـنَهُمْ إِنَّـهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

"وألف الشيء ألفًا وإلافًا وولافًا وألفانًا وألفه: لزمه، وآلفه إياه: ألزمه"(٢)، قال ابن عباس: "هم قوم أشراف من الأحياء أعطاهم رسول الله ﷺ يـوم حنـين وكانوا خمسة عشر رجلاً، أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حـزام، ومالـك بـن عوف، وصفوان بن أمية وغيرهم"(٣)، إذن السياق مهتم بالإيمان، وهذا لا يقتضي صيغة الإسراع، بل صيغة تتابع الأحداث؛ لأنه يدخل في باب الإخبار والموعظة.

إن تركيب (المؤلفة قلوبهم) تركيب قرآني بـات مصـطلحًا قرآنيـا علمًـا على:(قوم كانوا في صدر الإسلام ممن يُظهُروا الإسلام،يتألفون بدفع سـهم مـن الصدقة إليهم لضعف يقينهم"(٤)، وباتت الصدقة للمؤلفة قلوبهم فريضـة بـنص القرآن الكريم، وهذه كناية عن تأثير الإسلام فيهم، وتوغلهم في عباده الله(٥).

القـــلوب الخاشعة:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾(٦).

الخشوع يعبر عنه بالسكون والتذلل(٧)، ويسـتعمل فـي القلـب والبصـر والصوت(٨)، "فالخشوع لا يكون تكلفًا، ولهذا يُضاف إلى القلب"(٩)، ولا يصح فـي هذه الآية التعبير عنه بالخضوع، فلا يقال: خضع قلبه؛ لأن الخضوع عن خـوف وتقية ومداراة(١٠)، والخضوع منحُّط الدلالة؛ لأنه يأتي فيما استهجن من المعاني، أما الخشوع فدلالته شريفة؛ لأنه يستعمل في العباد، وأدب العبد مع ربه، وفي كل

---

(١) الأنفال: الآية (٦٣).
(٢) لسان العرب ٩/٩ (أ ل ف).
(٣) التفسير الكبير ٨٥/١٦.
(٤)الجامع لأحكام القرآن ١٧٩/٨.
(٥) أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم، ص٣٢٦.
(٦) الحديد: من الآية (١٦).
(٧) القاموس المحيط ١٨/٣ (خ ش ع).
(٨) ينظر: العين١١٢/١، والمصباح المنير ١٧٢/١، المكتبة العلمية، بيروت (خ ش ع).
(٩) ينظر: الفروق اللغوية، العسكري (أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن بن مهران العسكري، ت٣٩٥هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلـم والثقافـة، القاهرة ــ مصر ٢٤٨/١.
(١٠) ينظر: جماليات المفردة القرآنية، ص٧٣.

عمل قلبي، كالخشوع في الصلاة وغيرها من العبادات، فأصل الخشوع في القلب، ثم يجري على الجوارح، ومن هنا قيل: "إذا ضرع القلب خشعت الجوارح"(١)، ومنه الحديث الشريف: "لو خشعَ قلبُهُ لخشَعت جوارحُهُ"(٢)، فاتضح بذلك أن الخشوع باطن معنوي.

وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣).

"خبت: الخاء والباء والتاء أصل واحد يدل على خُشُوع، يقال: أَخْبَتَ يُخبتُ إخباتًا إذا خَشَعَ وأخبت لله تعالى"(٤)، "والمخبتين أي: المتواضعين"(٥)، والمخبت: "المطمئن إلى الله، والمنقطع إلى عبادته بالخضوع والتواضع، والإخبات من أعمال القلوب وهو معدن التقوى، ولفظ الإخبات يتعدى بـ(إلى) و(اللام) فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فمعناه أطمأن إليه، وإذا قلت أخبت له فمعناه خشع وخضع له(٦).

وفي هذه الآية الكريمة وردت لفظة (تُخبت) ومعناها: الخضوع للقرآن والسكون إلى ما فيه، ومعنى الآية الكريمة "لكي يعلم أهل العلم بالله أن الذي أنزله الله من آياته التي أحكمها لرسوله، ونسخ ما ألقي الشيطان فيه، أنه الحق من عند ربك يا محمد ﷺ يقول: فيصّدقوا به، يقول: فتخضع للقرآن قلوبهم، وتذعن بالتصديق به والإقرار بما فيه"(٧).

---

(١) المفردات، للراغب الأصفهاني ٢٨٣/١ (خ ش ع).
(٢) المصنَّف، عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي (ت٢٣٥هـ)، تحقيق: سعيد اللحام، دار الفكر، الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ ، ١٩٠/٢.
(٣) الحج: الآية (٥٤).
(٤) مقاييس اللغة، ٢٣٨/٢ (خ ب ت).
(٥) المفردات، ص٢٧٢/١ (خ ب ت).
(٦) كتاب الأفعال، ابن القطاع (أبو القاسم علي بن جعفر بن القطاع)، عالم الكتب، بيروت، ط١، ط١، (د.ت) ٣١١/١.
(٧) جامع البيان ٦٧٠/١٨.

القلوب السـليمة:

ورد في القرآن الكريم وصف القلب بالسلامة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(١)، وقوله تعالى في وصف إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٢).

الأصل اللغوي لمادة (س ل م) يدل على الصحة والسلامة إذ يقول ابن فارس: "السين واللام والميم معظم بابه من الصحة والعافية"(٣).

وفي سياق النص يتبين وجه الصواب من أقوال العلماء والمفسرين، وذلك حين يكون السياق مبينًا عدم صحة قول، ومبينًا صواب غيره، قال ابن العربي في تفسير الآية الأولى: "فيه ــ القلب السليم ــ قولان: أحدهما: أنه سليم من الشرك، قاله ابن عباس، الثاني: أنه سليم من رذائل الأخلاق ....، وقال قوم : معناه لديغ ــ العرب تسمى اللديغ سليمًا تفاؤلاً(٤)ــ أحرقته المخاوف ولدغته الخشية، وقد قال بعض علمائنا: إن معناه إلا من أتي الله بقلب سليم من الشرك فأما الذنوب فلا يسلم أحد منها، والذي عندي أنه لا يكون القلب سليمًا إذا كان حقودًا حسودًا معجبًا متكبرًا"(٥)، وقال الطبري في تفسير هذه الآية: "ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع إلا القلب السليم، والذي عني به من سلامة القلب في هذا الموضع: هو سلامة القلب من الشك في توحيد الله والبعث بعد الممات"(٦). وفي تفسير الآية الثانية، يقول الطبري: "سليم من الشرك، مخلص له التوحيد"(٧).

---

(١) الشعراء: الآيتان (٨٨)، (٨٩).
(٢) الصافات: الآية (٨٤).
(٣) مقاييس اللغة ٣/٩٠ (س ل م).
(٤) "السليم يُطلق في العربية على الصحيح وعلى اللديغ واشتقاقه من السلامة يؤكد أصالة المعنى المعنى الأول، أما إطلاقه على اللديغ فهو على التفاؤل بسلامته وبرئِه من علته". (ينظر: فصول في فقه اللغة العربية، د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣، ١٤١٥هـ ــ١٩٩٤م، ص٣٤٧.
(٥) أحكام القرآن، لابن العربي، (القاضي محمد عبدالله أبو بكر بن العربي المعافري الأشبيلي المالكي، ت٥٤٣هـ)، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ ــ٢٠٠٣م، ٣/٤٥٩.
(٦) تفسير الطبري ١٩/٣٦٦.
(٧) المصدر السابق ٢١/٦٢.

وقال أبو السعود: "أي من آفات القلوب أو من العلائق الشاغلة عن التبتل إلى الله عز وجل"(١)، فالأصل في القلب السلامة وهي فطرته، وصدق رسول الله ﷺ عندما سُئل أي الناس أفضل؟ قال: "كل محموم القلب، صدوق اللسان"، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما محموم القلب؟ قال: هو التقي النقي، لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل، ولا حسد"(٢).

القلوب المربـــوط عليها:

استعملت هذه المادة في القرآن الكريم خمس مرات، وجاءت مقترنة بالقلب ثلاث مرات، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٤)، وقوله جل من شأنه: ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥).

يربط: كان مستعملاً في الآيات التي تتحدث عن النصر والجهاد، ولجذر (ر ب ط) في اللغة دلالات حسية، منها:

رَبَطْتُ الشيء: أربِطُهُ، وأرْبُطَهُ: شددته: والموضع مَربَط ومَرْبِط ... ويقال: نعم الربيّط هذا، لما يرتبط من الخيل ... والرباط ما تشدُ به القربة والدابة وغيرهما، والجمع رُبُطِ، قال الأخطل(٦):

تمـــوتُ طـــورًا وتحيـــا في أســـرَّتِها كمـــا تُقَلَّـــب في الـــرُّبْطِ المَراويـــدُ

وفيهم رباط الخيل: حبسها واقتناؤها، قال الشاعر(١):

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم = تفسير أبي السعود (أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، ت:٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ١٩٧/٨.

(٢) قال العراقي في المغني ٨٩٠/١: أخرجه ابن ماجه ١٤٠٩/٢ عن عبدالله بن عمرو بإسناد صحيح، (سنن ابن ماجه القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي)، (د.ط).

(٣) الأنفال: من الآية (١١).

(٤) الكهف: من الآية (١٤).

(٥) القصص: من الآية (١٠).

(٦) ديوانه (ديوان الأخطل، برواية أبي عبدالله محمد بن العباس اليزيدي عن أبي سعيد السكري عن محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي، بعناية الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، بيروت، (د.ت)، عن القصيدة، ٢٥، البيت ٤١، ص١٥٠،وينظر: الصحاح ١١٢٧/٣ (ر ب ط)، والبيت من بحر البسيط.

فينـــا رَبـــاطُ جيـــاد الخيـــل مُعْلَمَـــةً وفي كُلَيْـــب ربـــاطُ اللُّـــومِ والعـــارِ

"والربط على القلب مستعار إلى تثبيت الإيمان وعدم التردد فيه، فلما شـاع إطلاق القلب على الاعتقاد، استعير الربط عليه للتثبيت على عقده، ومنه قـولهم: هو رابط الجأش، وفي ضده يقال: اضطرب قلبه، وتعدية فعـل (ربطنـا) بحـرف الاستعلاء للمبالغة في الشد؛ لأن حرف الاستعلاء مستعار لمعنـى الـتمكن مـن الفعل"(٢)، فكان المعنى: "أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليهـا، وارتفع فوقها"(٣)، ولعل هذا هو الذي اقتضى تغير الصيغة بين المضارع (يـربط) والماضي (ربط)، تأثرًا بالسياق، فتوافق الحال واللفظ.

ولقد عبر القرآن الكريم عن الربط بلفظ آخر هو: (الختم)، وذلك في قولـه تعالى: ﴿فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾(٤)، أي يحفظه ويربطه(٥)، قال مجاهد: "يربط على قلبك بالصبر على آذاهم حتى لا يشق عليك قولهم: إنه مفتر كذاب"(٦)، وهذا المعنى فيه صلة بالدلالة اللغوية للمادة، إذ الختم ضد الفـتح(٧)، وهـو التغطيـة والاستيثاق من أن لا يدخله شيء، وفي ذلك حفظ للقلب من أي مداخلـة تشـق عليه، وهكذا كان السياق مرجعية تفسيرية أساسية، فقد أفاد في بيان المراد مـن اللفظ (يختم)، وصار السياق في هذا منتجًا مستقلاً للدلالة.

القلوب المطمئنة:

الاطمئنان: من ألطاف الله بالمؤمنين في الدنيا، وأصل الاطمئنان من قولهم: "أرض مطمئنة ومتضأمنة، أي: منخفضة، واطمأن بالمكـان، ووتَّـد الله الأرض بالجبال فاطمأنت"(٨)، واطمأن الرجل اطمئنانًـا وطمأنينـة، أي: سـكن(١)، بعـد

---

(١) أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٩هـ –١٩٩٨م، ص٢١٦، ٢١٧، والبيت من بحر البسيط.

(٢) من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله، مكتبة المدينة ٢٠١٤هـ، ٣٠٣/١٤.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب ٤٦٢/١٥.

(٤) الشورى: من الآية (٢٤).

(٥) منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ابن الجـوزي، تحقيـق: محمد السيد الصفطاوي، د. فؤاد عبد المنعم أحمد، الإسكندرية، (د.ت) ص١٠٥.

(٦) التفسير الكبير ٥٩٦/٢٧.

(٧) الصحاح ١٩٠٨/٥ (خ ت م).

(٨) أساس البلاغة ٦١٤/١.

الانزعاج[٢]، وهذا المعنى هو وجه من الأوجه التي وردت في القرآن الكريم لهذه المادة، فقد ذكر مقاتل[٣] أن (ط م ن) في الكتاب العزيز جاءت على ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: تَطْمئِن: يعني تسكن في قوله تعالى: ﴿وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[٤]، يعني: يسكن قلبي إذا نظرت إليه، وقوله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾[٥]، يعني: تسكن قلوبنا إذا رأينا المائدة، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٦]، يعني: تسكن القلوب، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾[٧]، يعني: تسكن قلوبكم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾[٨]، يعني ولتسكن به قلوبكم، "وهذا المضارع في هذا التركيب مما لا يراد به حال ولا استقبال، إنما يراد به الاستمرار على المعنى مع قطع النظر عن الأزمنة"[٩]، وهذا حثٌ للعباد على تسكين القلب إلى ما وعد الله به من النعيم والثواب والطمأنينة إليه. فإن وعده سبحانه صادق ولا شيء تطمئن النفس إليه أبلغ من الوعد الصادق، إذن السياق في الآية سياق الإخبار والموعظة.

الوجه الثاني: اطمأن يعني رضى، فذلك قوله عز وجل: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[١٠].

الوجه الثالث: اطمأن يعني: أقام.

---

(١) الصحاح ٢١٥٨/٦ (ط م ن).
(٢) المفردات ٥٢٤/١ (ط م ن).
(٣) الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان، تحقيق/ عبدالله محمود شحاته، القاهرة، ١٩٧٥م، ١٢٢/١، مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني أبو الحسن البلخي نزيل مرو، كذبوه وهجروه ورمي بالتجسيم من السابعة، مات سنة خمسين ومائة (ينظر: تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٥٤٥/١).
(٤) البقرة: من الآية (٢٦٠)، ومثلها في: النساء: من الآية (١٠٣)، يونس: من الآية (٧)، الفجر: من الآية (٢٧).
(٥) المائدة: من الآية (١١٣).
(٦) الرعد: الآية (٢٨).
(٧) آل عمران: من الآية (١٢٦).
(٨) الأنفال: من الآية (١٠).
(٩) نظم الدرر ٣٣٦/١٠.
(١٠) النحل: من الآية (١٠٦).

و"الاطمئنان: السكون واستعير هنا لليقين وعدم الشك؛ لأن الشك يستعار له الاضطراب، واختير المضارع في (تطمئن) مرتين لدلالته على تجدد الاطمئنان واستمراره وأنه لا يتخلله شك ولا تردد"(١)، فأدى ذلك إلى التوافق اللفظي والمعنوي في الآيات، وكانت اللفظة مؤدية المعنى بحسب المقام والحال الذي ظهر، فكان ذلك مدعاة للتنوع في المعنى.

ومع انتقال السياق من سياق حث وتذكير إلى سرد القصص الذي يراد منه العظة والاعتبار يغير النص القرآني لفظة (تطمئن) إلى (فزِّع) بما يتوافق والسياق الجديد في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾(٢).

الفزع: "انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف، وهو من جنس الجزع، ولا يقال فزعت من الله كما يقال خفت منه، ويقال فزع إليه إذا استغاث به عند الفزع، وفزع له: أغاثه"(٣).

يقول العسكري: "إن الفزع مفاجأة الخَوْف عند هجوم غارة أو صوت هدّة، وما أشبه ذلك، وهو انزعاج القلب بتوقع مكروه عاجل"(٤)، والمعنى: أي قلوب الشفعاء والمشفوع لهم من المؤمنين وأما الكفرة فهم من موقف الاستشفاع بمعزل وعن التفزيع عن قلوبهم بألف منزل والتفزيع إزالة الفزع"(٥).

"وأصل التفزيع هو إزالة الفزع عن الإنسان، فالفعل فزع يطلق ويراد منه المعنى المتقدم "وهذه استعارة" أي أزيل الفزع عن قلوبهم، أي كما تقول: قذيت عينه إذا أزلت القذى عنها"(٦)، وهو وصف لحالة الشافعين والمشفوع لهم أي "كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها ربُّ العزة في إطلاق الأذن، فتباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضا. فإذا أُذن لمن يشفع فزعته

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٣٧، ١٣٨.
(٢) سبأ: من الآية (٢٣).
(٣) المفردات /٦٣٥ (ف ز ع).
(٤) الفروق اللغوية ١/٢٤٢.
(٥) تفسير أبي السعود ٧/١٣٢.
(٦) تلخيص البيان في مجازات القرآن، حققه وقدمه ووضع فهارسه: محمد عبد الغني حسان، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٣٧٤هـ ـ١٩٥٥م، ص١٩٣.

الشفاعة"[١]، "وبني للمجهول (فزع) لتعظيم ذلك التفزيع بأنه صادر من جانب عظيم، ففيه جانب الآذن فيه، وجانب المبلِّغ له وهو المَلَك"[٢]، فاستعارة هذا الفعل إلى وصف الحالة التي يكون فيها الشافعون والمشفوع لهم من الأمان والارتياح والسرور، فعند النظر إلى لفظة (فزع) "تجد أنها غريبة فريدة الفصاحة، لا يكاد الغير يقع عليها ويضعها هذا الموضع بحيث تكون مؤتلفة مع ما قبلها ومع ما بعدها هذا الائتلاف، كما أن الناظر في ألفاظه يجدها في الطبقة العليا من الفصاحة"[٣].

القلوب الوجـــــلة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٤].

الوجل في اللغة: "استشعار الخوف"[٥].

لم يفرق المفسرون بين الوجل والفزع، ومن ذلك عبارة الزمخشري في آية الأنفال: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: فزعت، "وعن أم الدرداء: الوجل في القلب كاحتراق السعفة، أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى. قلت: فادْعُ الله فإن الدعاء يذهبه، يعني: فزعت لذكره استعظامًا له وتهيبًا من جلاله وعزَّة سلطانه وبطشه بالعُصاة وعقابه"[٦]، ومثل ذلك عبارة أبي حيان[٧] لكن المتأمل للآية يجد أن كلمة (وجلت) (وجلت) استعملت هنا؛ لأن السياق يقتضي ذلك، وللتعبير عن خوف وتعظيم يُداخل القلب، ولا يظهر ذلك على البدن، فليس فيه اضطراب كالذي يصاحب الفزع، بل الوجل أقرب إلى السكون. وعلى هذا يكون الوجل: خوفًا يصاحبه تعظيم وإجلال، ولا يظهر آثاره على البدن، فتوافق الحال واللفظ، وظهر أثر السياق في تحديد اللفظ ومناسبته للنص.

---

(١) الكشاف ٨٧٣/٢٢.
(٢) التحرير والتنوير ١٨٩/٢٢.
(٣) إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د. حفني محمد شرف، إشراف: محمد توفيق عويضة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط٤، ١٣٩٠هـ ـ١٩٧٠م، ص٢٢٩.
(٤) الأنفال: من الآية (٢)، والمعنى نفسه في: المؤمنون: من الآية (٦)، والحج: من الآية (٣٥)، (٣٥)، والحجر: من الآيات (٥٢)، (٥٣).
(٥) المفردات ٨٥٥/١ (و ج ل).
(٦) الكشاف ١٦٨/٢، ١٦٩.
(٧) البحر المحيط ٤٧٠/٥.

القلوب العاقلة:

تمتلك لفظة (القلب) من خلال الآيات الواردة دلالة صريحة، وأخرى ضمنية تتحدد بالسياق الذي ترد فيه، ومما يدل على قوة القلب أنه يأتي في مواضع نزول القرآن فالسلطان للقلب، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾(٢)، جاء في معناه "نزل به جبريل، إليك أي يتلوه عليك فيعيه قلبك"(٣).

وفضلاً عن ذلك فإن القلب خص بالذكر؛ "لأنه موضع العقل والعلم"(٤)، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾(٥)، أي علم وفهم"(٦).

أما الثعالبي فهو يقطع بأن العقل في القلب، فيقول: "وهذه الآية تقتضي أن العقل في القلب وذلك هو الحق ولا ينكر أن للدماغ اتصالاً بالقلب يوجب فساد العقل متى اختل الدماغ"(٧). أما ابن القيم فإنه يجمع بين العقل والقلب والدماغ بطريقة جميلة، فيقول: "الصواب إن مبدأه ومنشأه من القلب ــ أي العقل ــ وفروعه وثمرته في الرأس، والقرآن قد دل على هذا بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾(٨)، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾، ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات، بل المراد ما فيه من العقل واللب"(٩).

---

(١) البقرة: من الآية (٩٧).
(٢) الشعراء: الآيتان (١٩٣)، (١٩٤).
(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٣٨/١٣.
(٤) فتح القدير، الشوكاني (محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني اليمني، ت١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق ــ بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ١٣٦/١.
(٥) ق: من الآية (٣٧).
(٦) ينظر: المفردات في غريب القرآن ٦٨٢/١ (ق ل ب).
(٧) ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي (أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف مخلوف الثعالبي، ت٨٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبدالموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي ــ بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، ١٢٨/٤.
(٨) الحج: من الآية (٤٦).
(٩) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم (محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن القيم الجوزية، ت٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٢٥/١.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[١]. الصُّدُورِ﴾[١].

يشير الواحدي في تفسير هذه الآية إلى أن مراد الله من قوله: "﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ، يعني: كفار مكة، (فينظروا) إلى مصارع الأمم المكذبة وهو قوله: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ فيتفكروا ويعتبروا، ثم ذكر أن الأبصار لا تعمي عن رؤية الآيات،ولكن القلوب تعمي فلا يتفكروا ولا يعتبروا"[٢]، ويؤكد سيد قطب ــ رحمه الله ــ ذلك بقوله: "ولفت الحس والقلب والعقل للنظر إلى ما في السموات والأرض، وسيلة من وسائل المنهج القرآني لاستحياء القلب الإنساني؛ لعله ينبض ويتحرك، ويتلقى ويستجيب، ولكن أولئك المكذبين من الجاهلين العرب ــ وأمثالهم ــ لا يتدبرون ولا يستجيبون ... فماذا ينتظرون؟"[٣]، ولا شك أن السياق هنا يُشعر بالمعنى، كما أن أن الموقف ساعد في فهم أو تعزيز مفهوم السياق.

ثانيًا ــ صفات القلب الكافر:

التغافل عن آيات الله ونسيانها، كان من الجوانب التي للقلب نصيب منها في الآيات الكريمة، إذ تمثل جحود الإنسان في تغافله عن آيات الله وتغاضيه عن دلائل قدرته، فالتغافل هو: "تعمد الغفلة"[٤]، وذلك يؤدي إلى صفات وأحوال كثيرة للقلب، وهذه الصفات تحمل في عمقها دلالة الإعراض، والميل عن الشيء، والانصراف عنه، وأهم ما تجدر الإشارة إليه أن الإعراض لم يكن صورة واحدة، فقد تعددت أشكاله، والسبب في ذلك أنه يختلف باختلاف السياق، وليس من عاقل يغفل أهمية السياق في النص المكتوب، فهو عنصر مهم من عناصر تكامل هذا

---

(١) الحج: الآية (٤٦).

(٢) ينظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي (أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد ابن علي الواحدي النيسابوري الشافعي، ت٤٦٨هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار النشر: دار القلم، الدار الشامية، دمشق ــ بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ٧٣٦/١.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت:١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق، بيروت ــ القاهرة، ط١٧، ١٤١٢، ١٨٢٣/٣.

(٤) لسان العرب ٤٩٨/١١ (غ ف ل).

النص، ويعين العقل على الفهم والاستيعاب بشكل جيد لا لبس فيه، فالسياق يجعل كل لفظ يدعم أخاه، وكل كلمة تشد أزر الأخرى، وكل معنى يقف مع الآخر جنبًا إلى جنب، مما يدعم الفكرة،ويجعلها أكثر رسوخاً في ذهن المتلقي، وبهذا يظهر لنا جانب عظيم من جوانب إعجاز القرآن الكريم، وأن من يقرأ هذه الآيات تستقر في ذهنه هيئة ذلك الإنسان الجاحد بأبشع صورة، وأكثرها استفزازًا، وهذه الصفات هي:

القلوب المختوم عليها:

القلوب في السياق القرآني تشعر بأنها العقول، لدخول القرينة السياقية، وقد عبر القرآن الكريم في مواضع عديدة عن القلوب التي لا تفقه بالطبع والختم عليها، قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾(١).

ولنا أن نستأنس بالمعنى الدلالي، "خَتَمه يخْتِمه ختْمًا وخِتامًا بالكسر أي: طَبَعه، ومن المجاز: ختم على قلبه إذا جعله لا يفهم شيئاً، ولا يَخْرُج منه شيئًا، كأنه طُبع"(٢)، ويبسط صاحب كتاب التفسير الكلام حول هذا المعنى: "وأصل الختم: الطبع، والخاتم هو الطابع، يقال منه: ختمت الكتاب، إذا طبّعْتَه، فإن قال لنا قائل: وكيف يختم على القلوب، وإنما الختم طبع على الأوعية والظروف والغلف؟ قيل: فإن قلوب العباد أوعية لما أُودَعت من العلوم، وظروف لما جُعل فيها من المعارف بالأمور، فمعنى الختم عليها وعلى الأسماع التي بها تدرك المسموعات، ومن قِبَلِها يوصل إلى معرفة حقائق الأنباء عن المُغَيبَّات ــ نظير معنى الختم على سائر الأوعية والظروف(٣).

وهذا هو المدلول الأول للفظ (ختم)، وقد تطورت هذه الدلالة عند إطلاق هذا الفعل وقوعه على القلب والسمع ليشمل معنى انغلاق هاتين الجارحتين عن الهداية والإيمان، يقول الزمخشري موضحًا ذلك: "وليس الختم على القلوب والإسماع ولا الغشاوة على الأبصار هنا حقيقة، بل ذلك جارٍ على طريقة المجاز بأن جعل قلوبهم أي عقولهم في عدم نفوذ الإيمان والحق والإرشاد إليها"(٤).

ثم يقول الزمخشري أيضًا بعد أن نفى ورود المعنى الحقيقي للختم في الآية: "وإنما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل: أما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم؛ لأن الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى

---

(١) البقرة: الآية (٧)، وبقية المواضع في الآيات: الأنعام: من الآية (٤٦)؛ الجاثية: من الآية (٢٣).
(٢) تاج العروس ٤١/٣٢ (خ ت م).
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٥٨/١.
(٤) التحرير والتنوير ٢٥٠/١، ٢٥١.

ضمائرها من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده، وأسماعهم؛ لأنها تمجه وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم ... وأما التمثيل فأن تمثل حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي تكلفوها وخُلقوا من أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية"(١).

ولم يكن الختم على الأبصار وإنما على القلوب؛ لأن "القلوب مجوفة أشبهت بالأكياس فاستعير لها الختم والطبع والأكنة، بينما البصر ليس مجوفًا، فكان الذي يناسبه الغشاوة"(٢).

وبما أن أحد معاني الختم هو السد، فاستعار القرآن الكريم هذه الصفة المادية للشيء وخلعها على القلب، فجعل للقلب قفلاً يسد أبواب الفهم والإدراك والتعقل أمامه، ونلاحظ أن عملية الانسداد للقلب تتناسب مع طبيعة هذين الجهازين المعدين لالتقاط الحقائق والأصوات، بحيث إذا سدت أبوابها لما أمكن للقلب أن يعي، ولا للأذن أن تسمع، ويشير بهذا الرمز إلى الانغلاق التام في ذهنية الكافر، فيما لا أمل في إصلاحه أبدًا ما دام قلبه وهو مركز الهداية قد ختم عليه، وما دام سمعه هو الحاسة التي يمكن لها أن تستمع إلى العقول فتفيد منه قد ختم عليها أيضًا(٣)، "وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل فلينبه على أن هذه الصفة في فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخلقي غير العرضي(٤)، وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾(٥)، "يحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بها الانتفاع الشرعي، أي سلبكم إياها كما أعطاكموها"(٦).

القلوب الزائغة الذعرة:

(١) الكشاف ١/٤٩.
(٢) الفوائد في مشكل القرآن، عز الدين عبد العزيز بن عبدالسلام السلمي، تحقيق: سيد رضوان علي الندوي، دار الشروق، جدة، ١٤٠٢هـ ـ١٩٨٢م، ص٣٠.
(٣) دراسات فنية في سور القرآن، د. محمود البستاني، مؤسسة الطبع، مجمع البحوث الإسلامية، ط١، ١٤٢١هـ، ص٦، ٧.
(٤) الكشاف ١/٤٢.
(٥) الأنفال: من الآية (٢٤).
(٦) مفاتيح الغيب ٣/٢٥٧.

ورد الأصل "زيغ" وما يشتق منه باعتباره واقعًا نفسيًا وانفعالاً مثيرًا في مواضع من القرآن الكريم لصفة القلب، وذلك بصيغة الماضي، والمضارع، والمصدر. جاء بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(١)، وجاء بصيغة المضارع في ثلاثة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾(٢)، وقد عبر القرآن الكريم بصيغة المصدر عن الحقيقة الثابتة للذين سرعان ما تميل قلوبهم عن الحق، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾(٣).

الزيغ: يعني العدول عن الشيء، يقول ابن فارس: "الزاء واليـاء والغين أصل يدل على مَيْل الشيء، يقال: زاغَ يزيغُ زَيْغًا"(٤).

وقد حدد الأصفهاني "الزيغ بالميل عن الاستقامة"(٥)، وهو مما يتوافق مع السياق القرآني.

ومن اللافت للنظر في الآيات السابقة أن الزيغ أسند إلى القلوب؛ لأنها موطن التقلبات والعدول عن الصواب، فقد نصت الآية الأولى: أن الله تعالى يزيغ من زاغ، ونسبته إليه ظاهرة حقًا ــ على سبيل الاتساع والمجاز ــ إن الاتساع في المجاز هو الذي يتجاوز هذه العقبات بيسر، ويدرأ هذه الشبهات بمرونة، فقد ذهب بعضهم في معنى ذلك أنه دعاء إلى الله وتوجه إليه بأن: ثبتنا بألطافك، وزد من عصمك وتوفيقك كي لا نزيع بعد إذ هديتنا، فنكون زائغين في حكمك ونستحق أن تسمينا بالزيغ وتدعونا به وتنسبنا إليه؛ لأنه لا يجوز أن يقال: إن الله سبحانه أزاغهم إذ سماهم بالزيغ، وإن كانوا هم الفاعلين له على مجاز اللغة، لا أنه تعالى أدخلهم في الزيغ، وقادهم إلى الاعوجاج والميل، ولكنهم لما زاغوا عن أوامره،

---

(١) الصف: من الآية (٥).
(٢) التوبة: من الآية (١١٧).
(٣) آل عمران: من الآية (٧).
(٤) مقاييس اللغة ٣/٤٠ (ز ي غ).
(٥) المفردات ١/٣٨٧ (ز ي غ).

وعاندوا ما فرض الله من فرائضه، جاز أن يقال، قد أزاغهم[١]، أو يكون لما منعهم ألطافه وفوائده جاز أن يقال: إنه أزعجهم مجازًا، وإن كان تعالى لم يرد إزاغتهم[٢]، إذن السياق في الآيات سياق دعاء، ومثل هذا ملحوظ في تغير الخطاب القرآني، وظهرت قيمة السياق في تحديد دلالة اللفظ (زيغ) المتأثرة بالمقام والمقال، كما قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾[٣].

ويستمر السياق في تأكيد المعنى في قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[٥].

تقول في اللغة: "رجُل لقيٌّ ومُلَقِي ومَلَقَّي ولقَّاء، يكون ذلك في الخير والشر، وهو في الشر أكثر"[٦]، ويعني طرحه. والناظر في السياق العام لهذه الآيات، يجد أنها تشير إلى: إسناد الإلقاء لله عز وجل (سنلقي)، و(سألقي) وذلك في خطاب قرآني للمؤمنين تثبتًا منه عز وجل، فهي "جملة استئنافية جارية مجرى التعليل لإفادة التثبيت؛ لأنه مصدقه ومبينه لإعانته إياهم على التثبيت"[٧]، كما فيها أيضًا صفة الإلقاء وهي غير القذف، في حين أن كثيرًا من المفسرين جعلوا الإلقاء هو القذف، يقول البيضاوي: "يريد ما قذف في قلوبهم من الخوف يوم أحد"[٨].

---

(١) مجاز القرآن وخصائصه الفنية، وبلاغته العربية، محمد حسين علي الصغير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٤م، ص١٤٨.
(٢) حقائق التأويل في متشابه التنزيل، السيد الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ)، شرح: محمد الرضا كاشف الغطاء، دار الأضواء، بيروت، ١٩/٥.
(٣) المؤمنون: الآية (١١٠).
(٤) آل عمران: من الآية (١٥١).
(٥) الأنفال: الآية (١٢).
(٦) لسان العرب ٢٥٤/١٥ (ل ق ي).
(٧) روح المعاني ١٦٦/٥.
(٨) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٤٢/٢.

والإلقاء لا يشترط فيه البعد، وإنما يراد منه الإلقاء عن قرب، والقرب هنا قرب مجازي الغرض منه إسناد وتثبيت المؤمنين، فالله عز وجل قريب من المؤمنين يثبتهم وينصرهم على الكفار بإلقاء الخوف في قلوبهم، فهو في التفسير كقوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ﴾(١).

"ولم يسند إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا إلى الملائكة، بل أسنده الله إلى نفسه وحده بقوله: سألقي في قلوب الذين كفرواْ الرعب؛ لأن أولئك الملائكة المخاطبين كانوا ملائكة نصر وتأييد فلا يليق بقواهم إلقاء الرعب؛ لأن الرعب خاطر شيطاني ذميم، فجعله الله في قلوب الذين كفروا بواسطة أخرى غير الملائكة"(٢)، والرعب بمعنى الفزع والخوف.

وقوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾(٣)، وقوله جل من شأنه: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾(٤).

دلالة الفعل (قذف) يعني: "الإلقاء السريع"(٥)، وهذه استعارة، والمراد بها أنه تعالى: ألقى الرعب في قلوبهم من أثقل جهاته، وعلى أفظع بغتاته تشبيهًا بقذف الحجر إذا صك الإنسان على غفلة منه، فإن ذلك يكون أملأ لقلبه، وأشد لروعه، واستعارة القرآن الكريم لها إنما كانت للتعبير عن تمكن الخوف من صميم الإنسان وانعكاسه على تصرفه الخارجي"(٦)، "وكأنه جعل الرعب في قلوبهم بأمره بأمره التكويني فاستسلموا ونزلوا على حكم المسلمين"(٧)، والمعنى أن الله جعل في قلوبهم الرعب فأسرعوا للاستسلام وقذف الرعب في قلوبهم هو من إتيان الله إياهم من حيث لم يحتسبوا فكان الخوف الشديد، وكذلك الفزع على الأعداء(٨)،

(١) أنوار التنزيل ٩٤/٣، وتفسير القرآن العظيم ٢٩٣/٢.
(٢) التحرير والتنوير ٢٨٢/٩.
(٣) الحشر: من الآية (٢).
(٤) الأحزاب: من الآية (٢٦).
(٥) التحرير والتنوير ٣١٢/٢١.
(٦) تلخيص البيان، ص١٩١.
(٧) التحرير والتنوير ٢٣١/٢١.
(٨) المصدر السابق ٧/١٣.

"إنها استعارة فريدة تصور الرعب وكأنه قذيفة تنفذ في القلوب لفورها، تصوير رائع جميل يبرز المعاني النفسية الخفية في صور محسوسة حية متحركة، كأننا نراها أو نلمسها، فكلمة (قذف) توحي بالقوة، وإسنادها إلى (الرعب) ومدى ما يحدثه هذا الإسناد من التجسيم الذي يثير في النفس أقصى درجات الخوف والانزعاج، إنه النظم القرآني يصور فيبدع، ويعبر فيعجز"(١)، وهذه معجزة للنبي ﷺ ذكرها في قوله "نُصرت بالرعب مسيرة شهر"(٢).

ومن هنا نجد أن النص والسياق يتكاملان فيما بينهما، فوحدات النص ينبغي أن ترتبط في سياقها، لتبرز قيمة السياق في تحديد دلالات الألفاظ المتأثرة بالمقام والمقال.

القلوب المشمئزة:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

شمز في اللغة: "التشمز التقبض وأشمأز: انقبض والمشمئز: النافر الكاره والمذعور"(٤). وإلى ذات المعنى وجه المفسرون معنى قوله تعالى: ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ففي التبيان: "نفرت والمشمئز النافر أو مالت بلغة نمير"(٥).

والحقيقة أن اشمأز غير اقشعر، ووجه الخلاف بينهما أن اقشعر يقال للجلد والبشرة، فاقشعر جلده: إذا قف، وأما اشمأز فيقال للوجه، وهو خلاف الاستبشار، "فإن الاستبشار هو أن يمتلئ القلب سرورًا حتى تنبسط له بشرة الوجه، والاشمئزاز أن يمتلئ غيظًا وغمًا ينقبض منه أديم الوجه"(٦).

وإنما نسب القرآن الكريم الاشمئزاز إلى القلب على خلاف؛ لأنه يمثل وجه النفس والروح، وهذه استعارة غاية في الجمال للتعبير عن نفور القلب وقسوته

---

(١) الإعجاز في نظم القرآن، د. محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ ـ١٩٧٨م، ص١٠٥.
(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب التيمم، رقم ٣٢٣، كتاب الصلاة رقم ٤١٩.
(٣) الزمر: من الآية (٤٥).
(٤) القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط٨، ١/٥١٤ (ش م ز).
(٥) التبيان في تفسير غريب القرآن ١/٢٨٤.
(٦) إرشاد العقل السليم ٧/٢٥٨.

وانقباضه عن التوحيد[١]، فالاشمئزاز حالة من الكراهية والغيظ تملأ النفس، حتى يظهر هذا الامتلاء على الوجه ويقابلها الاستبشار، فتوافق الحال واللفظ، وكانت لفظة (الاشمئزاز) مناسبة النص في هذا السياق.

القلوب المستورة:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[٢].

"الكِنُّ: كلُّ شيءٍ وَقَي شيئًا فهو كِنُّه وكِنانُة، والفعل من ذلك كننت الشيء أي جعلته في كِنٍّ"[٣]، وخصه الراغب بما يستر ببيت أو ثوب، وغير ذلك من الأجسام، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[٤]، أي قلوبهم في غطاء عن تفهم ما تُوْرده علينا[٥]، فحال قلوب المشركين في عدم سراية النصح التي يسمعونها إليها إليها حال الأشياء المحجوبة عن شيء، فذكر هنا المستعار له، قال ابن عاشور: "وهي هنا تخييل؛ لأنه شبهت قلوبهم في عدم خلوص الحق إليها بأشياء محجوبة عن شيء، وأثبتت لها الأكنة تخييلاً، وليس في قلب أحدهم شيء يشبه الكنان"[٦]، الكنان"[٦]، فالسياق جاء لإثبات العقوبة، فهو سياق تحذير وتنبيه.

القلوب التي أُشرِبت الحب:

قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾[٧].

الإشراب: "هو جعل الشيء شاربًا، واستعير لجعل الشيء متصلاً بشيء وداخلاً فيه، ووجه الشبه هو شدة الاتصال والسريان؛ لأن الماء أسرى في

---

(١) ينظر: روح المعاني ٢٦٥/١٢، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل = تفسير النسفي (أبو البركات عبدالله بن أحمد محمود حافظ الدين النسفي، ت:٧١٠هـ)، تحقيق: يوسف علي بديوي، راجعه: محي الدين ديب مصنتو، دار الكلم الطيبة، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ ــ١٩٨٠م، ١٨٤/٣ (بتصرف).

(٢) الإسراء: من الآية (٤٦)، وبقية المواضع في الآيات: فصلت: من الآية (٥)؛ الكهف: من الآية (٥٧)؛ محمد: من الآية (٢٤)؛ الأنعام: من الآية (٢٥).

(٣) لسان العرب ٣٦٠/١٣ (ك ن ن).

(٤) الصافات: الآية (٤٩).

(٥) المفردات ٧٢٧/١ (غ ل ف).

(٦) التحرير والتنوير ١٧٩/٧.

(٧) البقرة: من الآية (٩٣).

أجسام، ولذا يقول الأطباء الماء مطية الأغذية والأدوية ومركبها الذي تسافر به إلى أقطار البدن"(١).

"والعجل ليس موضع ذلك، بل المراد حب العجل، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، للدلالة على هذه الحقيقة الثابتة، إذ أنزل العجل منزلة الحب، لملابسته لهم في قلوبهم، وتشرب قلوبهم بهذا الحب الأعمى، حتى عاد ذلك سمة من سماتهم، وحقيقة تكشف عن واقع حالهم في الهوى والضلال"(٢).

وقيل هو من قولهم: "أشربت البعير أي: شددت حبلاً في عنقه، فكأنما شد في قلوبهم العجل لشغفهم، وقال بعضهم معناه: أُشرب في قلوبهم حب العجل"(٣)، وسواء أكان معنى (أشرب) اتصال شيء بشيء، أم شد شيء بشيء، فقد انتقل معناه اللغوي إلى معنى آخر، وذلك من خلال استعمال القرآن الكريم له من إخفاء المبالغة على تعلق بني إسرائيل بالعجل، وقد ساعد على ذلك ما في لفظ الشراب المشتق من ذلك الفعل من معنى التغلغل والسريان، "وذلك أن من عاداتهم إذا أرادوا العبارة عن مخامرة حب أو بغض استعاروا له اسم الشراب الذي هو أبلغ انجاع في البدن، ولو قيل حب العجل لم يكن له المبالغة، فإن في ذكر العجل تنبيهًا أن لفرط شغفهم به صارت صورة العجل في قلوبهم لا تنمحي"(٤).

وحذف مضاف العجل مشهور في أمثاله في تعليق الأحكام وإسنادها إلى الذوات، وإنما شغفوا به استحسانًا واعتقادًا أنه إلاههم وأنه فيه نفعهم؛ لأنهم رأوْا أنه من ذهب قدسوه من فرط حبهم للذهب، وقد قوي ذلك الإعجاب به بفرط اعتقادهم الهيبة، ولذلك قال تعالى: (بكفرهم) فإن الاعتقاد يزيد المعتقد توغلاً في حب معتقده، وإسناد الإشراب إلى ضمير ذواتهم، ثم توضيحه بقوله: (في قلوبهم) مبالغة في التشرب والإشراب(٥).

---

(١) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم (شهاب الدين أحمد بن محمد عماد الدين بن علي أبو العباس، ت:٨١٥هـ)، تحقيق: ضاحي عبدالباقي محمد، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ ١/٣٥٣.

(٢) مجاز القرآن ــ خصائصه الفنية وبلاغته العربية، ص١٤٧.

(٣) المفردات في غريب القرآن، ١/٤٤٩.

(٤) المفردات في غريب القرآن، ١/٤٤٩.

(٥) مجمع البيان في تفسيرالقرآن، الطبرسي، دارإحياء التراث، بيروت،١٢٣٩هـ ١/١٦٢.

وهنا يتضح التراكم الدلالي في دلالة (أشرب) على تداخل حب العجل في قلوب وعقول بني إسرائيل، "وذكر (قلوبهم) لبيان مكان الإشراب، وذكر المحل المتعين يفيد مبالغة في الإثبات، والمعنى داخلهم حبُّ العجلَ، ورسخ في قلوبهم صورته، لفرط شغفهم به، كما داخل الصبغ الثوب"(١)، فيقال: (هذا مُشَرَّبٌ بحمرة أو صُفرة) أيْ: يخالط(٢)، فكلمة (أشربوا) من الألفاظ التي أغدق عليها السياق القرآني دلالات عديدة، وأضفت دلالة جديدة، وظهر أثرها في تحديد المعنى، وكانت مناسبة للنص في هذا السياق.

(١) ينظر: روح المعاني ٣٢٦/١، والكشاف ١٦٦/١.
(٢) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٨٦/١.

القلوب المطبـــــوع عليها:

قال تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَـعَ الْخَوَالِـفِ وَطُبِـعَ عَلَـى قُلُـوبِهِمْ فَهُـمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾(١).

"الطَّبْعُ والطبيعَةُ والطِّباع ككِتابٍ: الخَلِيقَـةُ والسَّـجِيَّةُ التـي جُبِـلَ عليهـا الإنسان"(٢).

إن تركيب الختم على القلوب والطبع عليها، ووضع الأقفال عليها؛ لتمثيـل وبيان مدى إصرار الكافرين على كفرهم بدين الله، وتمسكهم بما هو عليـه مـن الشرك، يوضح للسامع والقارئ أنهم قد بلغوا مرحلة زائدة من العتـو والكفـر، استحقوا بها أن يختم الله على قلوبهم وأسماعهم، فيصبحوا كالأنعام بـل أضـل سبيلاً، وأنَّ استخدام المحسوس لبيان المجرد يجعل الصورة أكثر وضوحًا، وأعمق أثرًا، وهذا ما امتاز به البيان القرآني معجز بلاغّي العرب على مـدى الـزمن، فالختم على القلوب والأسماع الوارد في الآية أعلاه، هو "نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها، ثم حلها فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله تعالى أنه ختم على قلوبهم، وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمه، وحل رباطه عنها"(٣).

كما ينبغي النظر إلى الروح السارية أو الحياة النابضة الآخذة بلب السياق؛ لأن السياق قد يحمل أكثر من غرض لعدم تسمية الفاعل (طُبع على قلـوبهم)، أو يبرز غرضًا أساسيًا أو جوهريًا حاملاً معه من الأغـراض مـا يتطلبـه المعنـى ويقتضيه المقام.

وقد ذكر الزركشي أن في بناء الفعل (طُبع) للمجهول فـي سـياقه نظـرة التناسب مع ما تقدم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَـتْ سُـورَةٌ أَنْ آمِنُـواْ بِاللّـهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُـواْ

---

(١) التوبة: الآية (٨٧)، وبقية المواضع في الآيات: الأعراف: الآيات (١٠٠)، (١٠١)؛ التوبـة: الآية (٩٣)؛ يونس: الآية (٧٦)؛ النحل: الآية (١٠٨)؛ الروم: الآيـة (٥٩)؛ غـافر: الآيـة (٣٥)؛ محمد: الآية (١٦)؛ المنافقون: الآية (٣٠).

(٢) تاج العروس ٤٣٧/٢١ (ط ب ع).

(٣) تفسير القرآن العظيم ١٧٥/١.

بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾[١]. فصدر الآية الكريمة جاء بالبناء للمفعول (أنزلت سورة) فتناسق الختام مع البدء "فجاء قوله (وطُبع) ليناسب بالختام المطلع بخلاف قوله فيما بعدها: (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون)، فإنه لم يقع قبلها ما يقتضي البناء، فجاءت على الأصل"[٢].

وهكذا استدعى النظم القرآني العدول عن البناء للمعلوم إلى المجهول، لإبراز سر بلاغي، ربما لا يتضح تمام الوضوح بصيغة واحدة، كما في: "طَبع"، و"طُبع"، فهاتان صيغتان وردتا في صورة التوبة في سياقين يتقاربان لفظًا ومعنى وبين السياقين خمس آيات فقط:

الصيغة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾[٣].

الصيغة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٤].

غير أن ابن عاشور يرى أنه صرَّح بالفاعل في الصيغة الثانية لاحتمال أن يكون الطَبع فيها غير الطبع الذي جُلبوا عليه كما في سياق الصيغة الأولى، "بل هو طَبْعُ على طبع أنشأه الله في قلوبهم لغضبه عليهم فحرمهم النجاة من الطَّبع الأصلي وزادهم عمَاية"[٥]، وتبرز المغايرة بين الصيغتين وجهًا آخر من المناسبة التي تجمع بين اللفظ والمعنى، حيث أفادت صيغة (طَبع) أن إسناد الطبع إلى الله عز وجل أشد تمكنًا في القلب من بنائه على صيغة (طُبع) بطرح الفاعل، فهو في الأولى أشد وأقوى، وقد كان ذلك؛ لأن صيغة (طَبع) فيها من المبالغة والتأكيد مما ليس في الصيغة الثانية، ويتضح ذلك من سياق الآيات الثلاث التي بعد سياق صيغة (طَبع)، فناسب ذلك إسناد الطَبع إلى الله للإشارة على شدة تمكن الكفر في قلوبهم بخلاف سياق صيغة المبنى للمفعول[٦].

---

(١) التوبة: الآيات (٨٦)، (٨٧).
(٢) البرهان في علوم القرآن ١٤٥/٣.
(٣) التوبة: من الآية (٨٧).
(٤) التوبة: من الآية (٩٣).
(٥) التحرير والتنوير ٦/١١.
(٦) ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمّان، ط٣، ١٤٢٦هـ ، ص٨٤.

وقد اعتمد الخطيب الإسكافي توضيح المغايرة الصرفية للبنائين على السياق اللغوي والحالي، فيرى أن صيغة لم يُسم فاعله جاءت مساوقة لتركيب الآية قبلها، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾(١)، فنوسب بين آخر هذه الآية ومطلع الآية التي قبلها ووفَّق بين صدر الكلام وآخره، أما الصيغة الثانية (طَبع)، فجاءت في تركيب بُسط فيه الكلام وأُشْبَعَ في بيان عذر المعذورين في سياق قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾(٣)، فلما بُسط الكلام في عذر هؤلاء مع ما ناسبه من توبيخ للمتخلفين بغير عذر في قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٤)، فبني الفعل للفاعل؛ لأن السياق سياق بَسط وإشباع وتوكيد لحال هؤلاء وهؤلاء، ولم يقع قبل هذا السياق وما يقتضي ــ لفظًا ــ البناء للمفعول، فجاءت على الأصل(٥).

وتابعه على ذلك التحليل الكرماني (ت٥٠٥هـ) (٦)، وابن الزبير (ت٧٠٨هـ)(٧)، وابن جماعة (ت٧٦٧هـ)(٨)، والأنصاري (ت٩٢٦هـ)(٩)، وهو تناسب لفظي جميل روعي فيه سياق الآيات لفظًا ومعنى.

---

(١) التوبة: من الآية (٨٦).
(٢) التوبة: من الآية (٩١).
(٣) التوبة: من الآية (٩٢).
(٤) التوبة: الآية (٩٣).
(٥) درة التنزيل وغرة التأويل ٧١٩/٢ــ٧٢١ (بتصرف)، وينظر: البرهان في علوم القرآن ١٤٥/٣.
(٦) البرهان في توجيه متشابه القرآن، لمحمود بن حمزة الكرماني، تحقيق: أحمد عز الدين عبدالله خلف الله، دار الوفا، المنصورة ــ مصر، ط٢، ١٤١٨هـ، ص١٩٠.
(٧) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، تحقيق: محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية، بيروت ١٤٠٥هـ، ٤٧٠/١.
(٨) كشف المعاني في المتشابه والمثاني، لمحمد بن إبراهيم بن جماعة، تحقيق: مرزوق على إبراهيم، دار دار الشريف، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ، ص٢٠٣.
(٩) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، لشيخ الإسلام: أبي يحيى زكريا الأنصاري، تحقيق: محمد علي الصابوني، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، ص١٧١.

ومن مظاهر الطبع على القلب الرين على القلوب في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١].

(١) المطففين: من الآية (١٤).

"الرين كالصَّدأ يَغْشي القَلْبَ، وران الذَّنْبُ على قَلْبه يَرينُ رَيْنًا ورُيُونًا غَلَبَ عليهِ وَغَّطاهُ، وقيل هو الذَّنْب على الذَّنب حتَّى يسوادَّ القَلَبُ"(١).

ويشير البيضاوي في تفسير هذه الآية: "كلاَّ ردع عن هذا القول: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، رد لما قالوه وبيان لما أدى بهم إلى هذا القول، بأن غلب عليهم حب المعاصي بالانهماك فيها حتى صار ذلك صدأ على قلوبهم فعمي عليهم معرفة الحق والباطل، فإن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكات، كما قال ﷺ : "إن العبد كلما أذنب ذنبًا حصل في قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه"(٢)، ومع انتقال السياق من تأكيد الصفة والعقوبة، يغير النص القرآني صيغه، بما يتوافق والسياق الجديد. كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(٣)، انتقال من ذكر واقعهم مع القرآن إلى بيان سبب إعراضهم عن القرآن، فأضاف الأقفال إلى القلوب للدلالة على أنها أقفال مخصوصة، مناسبة لها، غير مجانسة لسائر الأقفال المعروفة(٤)، والمتأمل لنظم هذه الآية يجد أن الأقفال جاءت مضافة إلى ضمير تلك القلوب في قوله (أقفالها)، فقد جاءت الإضافة هنا مبينة عظم هذه الأقفال، وشدة غلظتها، فهي أقفال خاصة تليق بالقسوة التي أعرضت عن القرآن، ففي هذه الإضافة تمييز لهذه الأقفال وتخصيص لها، فليست هي الأقفال المعروفة، وإنما هي "أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح أبدًا"(٥)، وتكمن بلاغة القرآن الكريم وإعجازه أن ذكر هذا المعنى بطريق الاستعارة المكنية التخيلية(٦)، وإذا كانت غاية السياق إظهار معاني النص، مع التوجه إلى الجانب الدلالي، فقد جعل

---

(١) ينظر: لسان العرب ١٩٢/١٣ (ر ي ن).
(٢) رواه ابن ماجه في السنن ٤٢٤٤: ١٤١٨/٢ بالمعنى، وينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٢٩٥/٥، ومدارك التنزيل ٣٢٤/٤.
(٣) محمد: الآية (٢٤).
(٤) روح المعاني ٧٤/٢٦، والدر المنثور ٥٠١/٧.
(٥) الكشاف ٣٢٦/٤.
(٦) الاستعارة المكنية التخيلية هي: "أن يُغمر التشبيه في النفس، فلا يصرح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه، ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به". (ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)، شرح وتعليق: محمد عبدالمنعم خفاجي، المطبعة الفاروقية الحديثة، ١٩٥٠م، ١٧٣/٣).

إيضاح المعنى شيئًا جوهريًا مكملاً للتفسير وهذا ما نجده في صفة خذلان القلوب في قوله تعالى: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾(١).

اشدد فعل يشير معناه اللغوي إلى استعمال القوة مع الأشياء، وفي إثباتها والمبالغة فيها في التعامل معها بشدة، وقد أخذ هذا المعنى من: "الشَّدُّ: العقد القويّ، يقال: شَددْتُ الشّيء: قوّيت عقده، والشِّدَّةُ تستعمل في العقد وفي البدن وفي قوى النفس وفي العذاب"(٢)، وقيل إن اشدد "مشتق من الشدِّ وهو العُسر، ومنه الشدة للمصيبة والتحرج، ولو أريد غير ذلك لقيل: واطبَع، أو واختم، أو نحوهما، فيكون شد بمعنى أدخل الشد أو استعمله مثل جد في كلامه، أي: استعمل الجد، وحرف (على) مستعار لمعنى الظرفية استعارة تبعية(٣) لإفادة تمكن الشدة"(٤). ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، ثبتهم على المقام ببلدهم بعد إهلاك أموالهم فيكون ذلك أشد عليهم، وقيل معناه أمتهم بعد سلب أموالهم وأهلكهم، وقيل: إنه عبارة عن الخذلان والطبع"(٥)، فكان لابد من التوافق بين اللفظ والمعنى، وظهرت وظهرت دلالة الفعل (اشدد)، وظهرت دلالة السياق.

وغمرة القلوب في قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾(٦).

"الَغْمُر: الماءُ الكثيرُ، والَغْمرةُ: الِّشدِّةُ وجمعُ (الَغْمرة) غُمَرُ، مثل: نَوْبَةُ ونُوَب وغَمْرةُ الموت: شِدَّةُ همومِه"(٧)، والتفت المفسرون إلى المعنى اللغوي واستفادوا منه في شرح دلالته في القرآن الكريم ومناسبته للسياق، فغمرت قلوبهم قيل معناها في غفلة(٨)، ويقال: غمره الماء: إذا غطاه "ونهر غمر يغطي

(١) يونس: من الآية (٨٨)
(٢) المفردات ٤٤٧/١ (ش د د).
(٣) "وهي أن يكون معنى التشبيه داخلاً دخولاً أوليًا، وتقع في غير أسماء الأجناس، كالأفعال والصفات المشتقة منها، وكالحروف". (ينظر: شرح تلخيص المفتاح، ص٦٠٤، ٦١٠).
(٤) التحرير والتنوير ٢٧٠/١١.
(٥) مجمع البيان ١٣٠/١١.
(٦) المؤمنون: الآية (٦٣).
(٧) لسان العرب ٢٩/٥، ٣٠ (غ م ر).
(٨) فتح القدير ٥٧٩/٣.

من دخله، والمراد هاهنا الغطاء والغفلة أو الحيرة والعمى"(١)، فالمعنى انسحب من المعنى اللغوي البسيط إلى معنى مجازي أوسع يبين أن هذه القلوب في جهل يشملهم شمول الماء الغامر لما فيه، إذن السياق يُشعر بالمعنى، كما أفاد في بيان المراد من اللفظ.

القلوب الغافلة:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾(٢).

"غفل: غفل عنه يَغْفُلُ غُفولاً وغَفْلَةً وأَغْفَلَه عنه غيرُه وأَغفَلَه: تركَه وسَهَا عنه، وأغفَلتُ الرجل أصبْتُه غافِلاً"(٣)، وقيل: "الغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ، يقال: غَفَل فهو غافِلٌ و(أغفلنا قلبه) يعني تركناه غير مكتوب فيه الإيمان، وقيل معناه من جعلناه غَافِلاً عن الحقائق"(٤).

"والمراد بإغفال القلب جعله غافلاً عن الفكر في الوحدانية حتى راج فيه الإشراك، فإن ذلك ناشئ عن خلقة عقول ضيقة التبصر مسوقة بالهوى والإلف، وأصل الإغفال: إيجاد الغفلة، وهي الذهول عن تذكر الشيء وأريد به هنا غفلة خاصة وهي الغفلة المستمرة المستفادة من جعل الإغفال من الله تعالى كناية عن كونه في خلقة تلك القلوب وما بالطبع لا يتخلف"(٥).

وقد تأكد هذا المعنى بجملة: "واتبع هواه"، "فإن اتباع الهوى يكون عن بصيرة لا عن ذهول، فالغفلة خلقة في قلوبهم، واتباع الهوى كسب من قدرتهم"(٦). وهذه استعارة على أحد التأويلات في هذه الآية، "وهي أن يكون المراد بذلك أننا تركنا قلبه غفلاً من السمات التي اتسمت بها قلوب المؤمنين فتدل على ذكاء أعمالهم وصلاح أحوالهم، وذلك تشبيهًا بالبعير إذا أغفل فترك بلا سمة يعرف بها على عادة العرب في إقامة السمات مقام العلامات المميزة بين أموالهم، وفي هذه الآية أقوال أخرى منها: أن يكون معنى أغفلنا قلبه: أي نسبناه إلى

(١) جامع البيان ٤٩/١٩.
(٢) الكهف: من الآية (٢٨).
(٣) لسان العرب ٤٩٧/١١، ٤٩٨ (غ ف ل).
(٤) المفردات ٦٠٩/١، ٦١٠ (غ ف ل).
(٥) التحرير والتنوير ٣٠٦/١٥.
(٦) تلخيص البيان، ص١٢٦.

الغفلة كقول القائل: أكفّرت فلانًا، إذ أنسبته إلى الكفر، ومنها أن يكون المعنى المراد: سميناه غافلاً بتعرضه للغفلة فكان المعنى حكمنا عليه بأنه غافل، وغيرها"(١). وقيل: أغفلنا قلبه: أي جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر بالخذلان، ولم نجعلهم من الذين كتب في قلوبهم الإيمان"(٢)، فأسند الفعل إلى القلب.

وهكذا استعمل القرآن الفعل (غفل) ودل السياق على أن المراد به نسيان ذكر الله أو تركه هذا القلب من دون أن يعلم بعلامة تميزه عن قلوب الكفار.

القلوب القاسية:

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾(٣).

القسوة تعني: الشدّة والغلظة، يقول ابن فارس: "القاف والسين والحرف المعتل يدل على شدة وصلابة، من ذلك الحجر القاسي، والقسوة: غلظ القلب"(٤). وقد يوصف القلب بالقسوة، وبرأ الله نبيه ﷺ من قسوة القلب، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾(٥).

فإذا عطل الإنسان بإرادته هذه الجارحة، ولم يستفد منها كما فعل بنو إسرائيل، فقد ساوى بينها وبين الحجارة التي تمثل أشد الموجودات قساوة. وفي الآية من الإعجاز ما لا يخفي "فقد انتهت البحوث الجيولوجية إلى أن الحجارة قد تتأثر وتتفاعل حيث إن هناك أحجارًا تنفجر منها المياه أنهارًا فضلاً عن المياه الجوفية التي قد تغور في القشرة الأرضية، حيث تجري في المسام الموجودة بين الصخور والأحجار حتى إذا زادت الضغوط الواقعة عليها تمكنت من الخروج على هيئة مياه متدفقة بحيث يمكنها أن تكون أنهارًا أو ينابيع"(٦). فمن أخبر محمد ﷺ بهذه الحقيقة العلمية. إنه الله لا إله إلا هو الحكيم الخبير.

---

(١) ينظر: الكشاف ٦١٨/١٥.
(٢) الكشاف ٧١٨/٢.
(٣) الزمر: من الآية (٢٢)، وبقية المواضع في الآيات: البقرة: من الآية (٧٤)، الحج: من الآية (٥٣).
(٤) مقاييس اللغة ٨٧/٥ (ق س و).
(٥) آل عمران: من الآية (١٥٩).
(٦) الإعجاز العلمي والبلاغي في القرآن الكريم، د. فهد خليل زايد، دار النفائس، ط١، ١٤٢٨هـ ـــ٢٠٠٨م، ص٢٨.

بدأ سياق الكلام بالحدث الأهم ولعل هذا هو الذي اقتضى لفظة (ويل)، فالقلب موضع قوة وجلادة؛ لذا يعبَّر به عن مواطن القوة، ولم يكن القلب متقلبًا إلا لتمكنه، "وهو محل العزم والفكر والعلم والقصد"(١)، ولقد بدأ القرآن الكريم ذكر حالهم بلفظة (ويل)، وفي هذه اللفظة من الرهبة والزجر الشيء العظيم، كما أن فيها من الإيجاز الأمر البديع، وذلك لأنه "أجمل سوء حالهم بما تدل عليه كلمة (فويل) من بلوغهم أقصى غايات الشقاوة والتعاسة"(٢)، وذلك أنهم قاموا بأعمال فظيعة استحقوا عليها هذا الجزاء، والحكمة في ذكر القسوة هنا للتعبير عن حالة أولئك الأقوام، والكشف عن حقيقتهم مع ذكر الله، وذلك أن حقيقة حالهم أنهم يرفضون ذكر الله جملة وتفصيلاً، ولا يقبلون منه شيئًا، فلو جاء التعبير بالضيق لأشعر ذلك أنهم يقبلون شيئًا قليلاً من ذكر الله، وحالهم خلاف ذلك(٣).

ويستمر السياق في عرض الوصف وصولاً إلى المعنى في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾(٤)، "وإيراد الفعل المفيد لحدوث القساوة، مع أن قلوبهم لم تزل قاسية لما أن المراد بيان بلوغهم إلى مرتبة مخصوصة من مراتب القساوة حادثة"(٥)، وبعد بلوغ الشيء إلى الانتهاء يقتضي حدوث شيء جديد، فهذا يوحي أنهم بلغوا إلى قساوة لا قساوة بعدها، كما يوحي هذا الأسلوب أن المواعظ والقوارع من جانب الله تعالى توجب الإقلاع عما كانوا عليه من الشقاوة، فإذا لم يُقلعوا عما كانوا عليه من الشقاوة، بل استمروا عليها فكأنها حدثت مرارًا "وإما لأن الاستمرار على شيء بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه أمر جديد وصنعُ حادث"(٦)، واستخدام كلمة (ثم) وهي للاستبعاد يوحي يوحي أن وجود القسوة بعد مشاهدة الآيات التي تقتضي إزالتها شيء مستبعد لا ينبغي أن تكون كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾(٧)، أي هذا

(١) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٤٩/١.
(٢) التحرير والتنوير، ٣٨١/٢٣.
(٣) روح المعاني ٢٤٧/١٢ (بتصرف).
(٤) البقرة: من الآية (٧٤).
(٥) إرشاد العقل السليم ١١٥/١.
(٦) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(٧) الأنعام: من الآية (١).

العدل بربهم شيء مستبعد لا ينبغي أن يكون، ولا يخفى على من يكون له أدنى تأمل ما في هذا الأسلوب من المبالغة في التهديد والتوبيخ(١).

ووصفت القسوة بالشدة "لكونها أبين وأدل على فرط القسوة، ووجه آخر: وهو أن لا يقصد معنى الأقسى، ولكن قصد وصف القسوة بالشدة، كأنه قيل: اشتدت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشد قسوة"(٢)، وفيه تتضاعف القسوة، "ووصف القلوب بالقسوة والغلظ مَثَلٌ لنبوّها عن الاعتبار، وأن المواعظ لا تؤثر فيها"(٣).

أما بعد انتقال السياق إلى وصف آخر في الموضع نفسه، والآية نفسها، لقسوة القلب، وفي إسناده إلى الحجارة معنى مضاف إلى المعاني المستفادة من النص التي تؤكد على أن هذه القلوب التي وصفت بالحجارة هي أقسى من تلك الحجارة؛ لأن من الحجارة ما يهبط من خشية الله، وما يتبع الهبوط من تأثر وتفتت، أما هذه القلوب فلم تتأثر بالخطاب الإلهي الذي هبط له الحجر وخضع له. ومن بديع التخلص تأخر قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ﴾(٤)، والتعبير عن التسخر لأمر التكوين بالخشية، ليتم ظهور تفضيل الحجارة على قلوبهم في أحوالها التي نهايتها الامتثال للأمر التكليفي، مع تعامي قلوبهم عن الامتثال لهذا الأمر، "وهو مجاز عن انقيادها لأمر الله وأنها لا تمتنع على ما يريد فيها وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تفعل ما أمرت به"(٥)، وقد كُني بالغلظة عن عدم الشفقة وكثرة القسوة في القلب في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾(٦).

والفظ: الغليظ(٧)، والمراد ههنا غليظ الكلام؛ لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أي: "ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك ولو انفضوا من حولك فات

(١) إرشاد العقل السليم ١٠٥/٣ (بتصرف).
(٢) الكشاف ١٥٥/١.
(٣) المصدر السابق والصفحة نفسها.
(٤) البقرة: من الآية (٧٤).
(٥) مدارك التنزيل ١٠٢/١
(٦) آل عمران: من الآية (١٥٩).
(٧) لسان العرب ٤٥١/٧ (ف ظ ظ).

المقصود من البعثة والرسالة"[١]، فنجد أنه قصر دلالة كلمة (الفظ) على (غلظ الكلام)، رغم أن معناها الغليظ، فتشمل غلظ اللسان وغلظ القلب؛ لأنه أتي في لحاقها: غلظ القلب في قوله: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾، فقصر دلالة فظًا على غلظ اللسان، لئلا يكون في الكلام تكرار لا فائدة منه فيتنافي فصاحة القرآن"[٢].

القلوب المتقلبة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[٣]، وقال جل شأنه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[٤].

"وبلوغ القلوب الحناجر تمثيل لشدة اضطراب القلوب الفزع والهلع حتى كأنها لاضطرابها تتجاوز مقارَّها وترتفع طالبة الخروج من الصدور"[٥]. فهذا تشبيه قد بيّن الحالة النفسية والصراع الداخلي بين القلب وصاحبه، فالقلب إذا تأثر بالعوامل الخارجية فهو يجبر صاحبه على التوالي عما يريده كي يتجنب المشاق التي تترآى أمام القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾[٦].

"وجَفَ الشَّيءُ يَجِفُ وَجْفًا ووَجِيفًا ووُجُوفًا: اضْطَرَبَ، وقَلْبٌ واجِفُ: مُضْطرِبٌ خافِقٌ"[٧]، والمعنى في الآية: قلوب شديدة الاضطراب.

وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[٨].

القلب: "تحويل الشيء عن وجهه، قلبه يقلبه قلبًا وأقلبه وقد انقلب، وقلب الشيء وقلَّبه حوله ظهرًا لبطن، ... والقُلَّب الحُوَّل الذي يقلب الأمور ويحتال لها"[٩]، وقوله: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ معناه ترجف وتخف من "شدة الفزع

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٠٧/٩.
(٢) المصدر السابق، والصفحة نفسها.
(٣) الأحزاب: من الآية (١٠).
(٤) غافر: من الآية (١٨).
(٥) التحرير والتنوير ٢٨٠/٢١.
(٦) النازعات: الآية (٨).
(٧) تاج العروس ٤٤٦/٢٤ (و ج ف).
(٨) النور: الآية (٣٧).
(٩) لسان العرب ٦٨٥/١ (ق ل ب).

وعظمة الأهوال"[١]، فتتقلب "من هوله بين طمع بالنجاة وحذر بالهلاك والأبصار أي ناحية يؤخذ بهم، أذات اليمين أم ذات الشمال ومن أين يؤتون كتبهم"[٢]، أو تقلب القلوب أي "تتقلب أحوالها فتفقه القلوب ما لم تكن تفقه وتبصر الأبصار ما لم تكن تبصر"[٣]، أي لا تعرف القلوب إلا عياناً فتتقلب عما كانت عليه من الشك والكفر ويزداد المؤمنون يقيناً ويكشف عن الأبصار غطاؤها[٤]، فكان مقصد الحوار والسياق تأكيد الحدث والعقوبة، وسرد الوصف الذي يراد منه العظة والاعتبار، فحصل توافق بين اللفظ والمعنى، بحسب المقام والحال.

القلوب اللاهية:

قال تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[٥].

"اللَّهْوَةُ: المرأةُ المَلْهُوُّ بها، ولَهِيَ به: أحَبَّهُ وعنه: سَلاَ وغَفَلَ وألهى: شَغَلَ وتَركَ الشيءَ عَجْزًا"[٦]، ولهى لهيًا ولهياناً ترك ذكره وفي التنزيل: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[٧]، أي امرأة، واللهو في لغة أهل حضرموت الولد[٨]، واللهو كاللعب يقال لهوت بالشيء ألهو به لهوًا وتلهيت به إذا لعبت به وتشاغلت وغفلت به عن غيره"[٩]، وعلى هذا فمعنى لاهية قلوبهم يعني شاغلة غافلة[١٠]، أو "ساهية قلوبهم معرضة عن ذكر الله متشاغلة عن التأمل والتفهم"[١١]، والمعنى أي: "استمعوه جامعين بين الاستهزاء والتلهي والذهول عن التفكر فيه"[١٢]، وهو حال من الضمير فيه فتكون مترادفة أو حالاً

(١) تفسير ابن كثير ٦٩/٦.
(٢) جامع البيان ١٩٤/١٩.
(٣) أنوار التنزيل ١٠٩/٤.
(٤) معاني القرآن، النحاس ٥٣٩/٤.
(٥) الأنبياء: من الآية (٣).
(٦) القاموس المحيط ١٣٣٣/١ (ل ه ي).
(٧) الأنبياء: الآية (١٧).
(٨) لسان العرب ٢٥٩/١٥ (ل ه ا).
(٩) المصدر السابق، والصفحة نفسها.
(١٠) التبيان في أقسام القرآن محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي (ت٧٥١هـ)، دار الفكر، بيروت ٢٩٣/١، وتفسير الطبري ٤١٠/١٨.
(١١) الجامع لأحكام القرآن ٢٦٨/١.
(١٢) أنوار التنزيل ٤٥/٤.

ويجوز أن يكون من واو يلعبون فتكون متداخلة، والمعنى ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث في حال من الأحوال إلا في الاستماع مع اللعب والاستهزاء ولهوة القلوب"[١]، ثم أنه وصف قلوبهم وقال (لاهية) ولم يقل مثلاً غافلة أو ساهية؛ لأن اللهو يتضمن معنى الانشغال بشيء عن شيء، أو أن تتهلى بشيء من شيء، ووجه القرطبي انشغالهم على وجهين، أحدهما: بالدنيا؛ لأنها لعب. والثاني: يتشاغلون"[٢]، بالقدح فيه والاعتراض عليه وهو ضرب من الإعراض لقلوبهم عن عن سماع ما يتلي وكأن القلوب هي التي تسمع وتعي وهي مضربة عن الذكر؛ لأنها منشغلة تتلهى عن كل ذلك، إذن أصبح السياق حصيلة للنص الذي يكتب، ويتكامل النص والسياق فيما بينهما، فوحدات النص ينبغي أن ترتبط في سياقها، لتبرز قيمة السياق.

القلوب المريضة:

يكشف الله سبحانه وتعالى عن هذه النزعة في قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[٣].

المرض لغة: "النَّقْصانُ ونقِيضُ الصِّحَّةِ، بدن مريض: ناقص القوة، وقلب مريض: ناقص الدين، والمرض: إِظْلامُ الطبيعةِ واضْطِرابُها بعد صفائها واْعتدالها"[٤].

وصف القرآن الكريم بعض الأشخاص ومآل وعاقبة أمرها حاملة النزعة بما يخدم الهدف ويتوافق مع السياق، ولا يحيد به عن طريق الجادة والصواب، ولم تكن هذه الأوصاف إلا إشارات تحمل دلالات النزعة، وتساعد القارئ في تصور ما يعتري الأشخاص من تغيرات بتأثير النزعة، ودور الجسد في بيان النزعة. ونزعة النفاق هي التي تظهر اختلاف ظاهر الإنسان عن باطنه، يقول ابن

---

(١) فتح القدير ٣/٤٦٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١/٢٦٨.
(٣) المائدة: من الآية (٥٢)، وبقية المواضع في الآيات: الحج: من الآية (٥٣)؛ المدثر: من الآية الآية (٣٢)، البقرة: من الآية (١٠)؛ الأنفال: من الآية (٤٩)؛ التوبة: من الآية (١٢٥)؛ الأحزاب: من الآية (٦): محمد: الآيات (٢٠)، (٢٩).
(٤) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيدة، ط٨، ١/٢٠٤، ولسان العرب ٧/٢٣٢ (م ر ض).

منظور في تعريفه: "أما كفر النفاق فأن يقرَّ بلسانه ويكفر بقلبه ولا يعتقد بقلبه"(١).

يخاطب الله تعالى نبيه المصطفى ﷺ في القوم المنافقين الذين يوالون الكافرين، يصفهم في بداية الآية بأنهم مرضى، يقول: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وهذا المرض ليس إلا النفاق الذي يتصفون به(٢)، وقد جاء هذا في قلوبهم فكانت البداية بقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾، أي أنه لم يصف شيئًا ظاهرًا ولكنه تعمق إلى داخل نفوسهم.

وقوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٣).

تناولت الآية جانب عقدي متمثل في البقاء على الضلال والنفاق بالرغم من البيان الشافي، وقوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، "أفي قلوب هؤلاء الذين يعرضون إذا دعواْ إلى الله ورسوله ليحكم بينهم شك في رسول الله ﷺ ، أن لله رسول فهم يمتنعون من الإجابة إلى حكمه والرضا به إذا احتكموا إلى حكم كتاب الله وحكم رسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون. يقول تعالى ذكره: إنما كان ينبغي أن يكون قول المؤمنين إذا دعوا إلى حكم الله وإلى حكم رسوله ليحكم بينهم وبين خصومهم أن يقولوا سمعنا ما قيل لنا وأطعنا من دعانا إلى ذلك"(٤)، فتفسير المرض بالنفاق والشك، وتشبيه النفاق والشك بالمرض استعارة تصريحية أصلية(٥).

فكلمة (مرض) هنا قصد بها السياق (المرض النفسي)، وليس (العضوي)؛ لأن النفاق من أخطر الأمراض النفسية، ومما يُلفِتُ النظرَ أنَّ سياق النص القرآني لم يكتف بما هم عليه من مرض، بل زادهم الله مرضا، أي: ضاعف مرضهم حتى لا يُرجى لهم شفاءُ أبدًا، ولو وازنّا بين لفظتي (ختم)، و(مرض) ، لوجدنا أن

(١) لسان العرب ١٦٩/٥ (ر ا ب).
(٢) روح المعاني ١٥١/١.
(٣) النور: الآية (٥٠).
(٤) ينظر: جامع البيان ٢٠٥/١٩، ٢٠٦.
(٥) ينظر: تلخيص البيان، ص١١٣.

(الختم) على قلوبهم يوحي بثباتهم على كفرهم. فـ﴿خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، "هو وصفهم بالاستكبار والإعراض الذي دعوا إليه"(١)، فهو طبع عليها ووسمها بسمة الكفر، بينما تدل كلمة (المرض) على التذبذب بين الزيادة والنقصان، فـ﴿قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: "شكٌ ونفاقٌ وضعف يقين"(٢)، يزداد تارةً ويفترُ أخرى، فكان لابد من حصول التوافق اللفظي والمعنوي في هذه الآية، بحسب المقام، وبحسب الحال الذي ظهر، فظهرت دلالة السياق وظهر أثرها في تحديد اللفظ.

القلوب النادمة:

قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾(٣).

في اللغة: حسره من حسر، والحسر كشطك الشيء عن الشيء يحسره حسرًا وحسور فانحسر:كشطه،والانحسار: الانكشاف(٤).وقد وردت صفة(الحسرة) بصيغة (فعلة) وهي الندامة في قلوبهم على فائت لم يقدروا بلوغه، وقيل: "ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم يوم القيامة لما هم فيه من الخزي والندامة، ولما فيه المسلمون من النعيم والكرامة"(٥)، والحسرة هي: "حزنٌ في قلوبهم وغم"(٦)، لقلة لقلة اليقين بربهم(٧)، واللام هنا لام العاقبة، أي: قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة في قلوبهم والمراد بالتعليل المذكور بيان عدم ترتيب فائدة ما على ذلك أصلاً، وقيل هي تعليل للنهي بمعنى لا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول واعتقاده ليجعله الله حسرة في قلوبهم خاصة ويصون قلوبكم منها(٨)، ولا شك أن أن السياق هنا يشعر بالمعنى، كما أن الموقف ساعد في فهم وتعزيز مفهوم السياق.

---

(١) جامع البيان ٢٦١/١.
(٢) لسان العرب ٢٣٢/٧ (م ر ض).
(٣) آل عمران: من الآية (١٥٦).
(٤) تاج العروس ١٢/١١ (ح س ر).
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٤٧/٤، وزاد المسير في علم التفسير ٤٦٤/١٠، ومدارك التنزيل ١٨٧/١.
(٦) تفسير الطبري ٣٣١/٧.
(٧) الدر المنثور، السيوطي ٣٥٧/٢.
(٨) إرشاد العقل السليم ١٠٤/٢، وفتح القدير ٤٥٠/١.

قال أبو حيان (رحمة الله تعالى عليه): "وقد تلخص في القرآن من المعاني السببية التي تحصل في القلب سبعة وعشرون مرضًا، وهي: الرَّين، والزَّيغْ، والطَّبْع، والصَّرْف، والضِّيق، والحَرَج، والخَتْم، والإِقْفَال، والإشْرَابُ، والرُّعْبُ، والقَسَاوَة، والإصْرَارُ، وعدم التطهير، والنُّفُور، والاشْمِئزازُ، والإنْكارُ، والشُكوك، والعَمَى، والإبعاد بصيغة اللعن، والتأَبِّي، والحميَّة، والبَغْضَاءُ، والغَفْلَةُ، والغَمْرَةُ، واللَّهْو، والارْتيابُ،والنِفاقُ. وظاهر آيات القرآن تدل على أن هذه الأمراض معانٍ تحصل في القلب فتغلب عليه، وللقلب أمراض غير هذه من الغل والحقد والحسد ذكرها الله تعالى مضافة إلى جملة الكفار"(١).

الأمعـــــاء:

قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ﴾(٢).

"المَعَي والمِعَي من أَعْفاج الْبَطْن، والعِفج: المعَي، وما يلتصق بها الشحم، وكانت تدل على ما لان من الأرض وانخفض"(٣). فقد أسند الفعل المضعف (قطّع) إلى الأمعاء، وقد أفاد ذلك أن التقطيع تكرر والأمعاء تجزأت، وفي هذا كناية عن شدة التعذيب وتكرره، وفي إسناد الأمعاء لهم ما يدل على استحقاقهم إلى هذا النوع من التعذيب الذي يقتصر عليهم(٤)، وفي السياق ورد الفعل (قطّع)؛ لأنه كان كان لابد من التوافق بين اللفظ والمعنى، ولزم حينئذ الفعل (التضعيف).

الوتـــــين:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾(٥).

يطلق على العرق اللاصق بالصُلْب المعَلَّق بالقلب، وإذا انقطع مات صاحبه(٦)، وتأكيدًا للمعنى اللغوي في معنى الوتين قيل: "أي نياط القلب، وهو قول قول بعض المفسرين(٧)، وهو الحبل الذي في الظهر، وقيل هو عرق يجري في

---

(١) البحر المحيط ٩٥/١، ٩٦.
(٢) محمد: من الآية (١٥).
(٣) لسان العرب ٢٨٧/١٥ (م ع ي).
(٤) أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم، د. سيد الصاوي ص٣٣٩.
(٥) الحاقة: من الآية (٤٦).
(٦) لسان العرب ٤٤١/١٣ (و ت ن).
(٧) ينظر: أنوار التنزيل ٣٨٤/٥، وجامع البيان ٢٤٣/٢٣.

الظهر حتى يتصل بالقلب، فإذا انقطع مات صاحبه"[١]، "وعلى كل ليس المراد قطع الوتين حقيقة، بل المراد الإهلاك والإماتة، وكني بقطع الوتين عن ذلك، وإنما عبر عن الإماتة بقطع الوتين؛ لتكون الإماتة معجلة وواقعة لا محالة"[٢]، فجاء السياق بصيغة الفعل (قطعنا)، وهذا تناغم بين سرعة الانتقال من حال إلى حال؛ لأن السياق اقتضى ذلك.

وبعد ... فقد رأينا هذه الصفات، ورأينا أن هذه الغايات ليست إلا جزءًا من أجزاء المقام، وأن الأجزاء الأخرى من المقام يمكن جمعها من الظروف المحيطة بالمقال من متكلم وسامع واعتبارات اجتماعية أخرى.

---

(١) تفسير البغوي = معالم التنزيل في تفسير القرآن، (أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، ت٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، ٥/١٥٠.

(٢) أعضاء خلق الإنسان، د. سيد الصاوي، ص٣٤٤.

المبحث الثاني
صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان الظاهرة

لقد أتيت في هذا المبحث على دراسة صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان الظاهرة الواردة في القرآن الكريم، والتي تدخل في بناء الإنسان وتركيبه، ولكل صفة سياق معين، مثل: الأنف، واللسان، واليد، والعين، والأذن، والجلد .... وسوف أعرض فيما يأتي هذه الصفات بحسب الترتيب الألفبائي لصفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان الظاهرة.

الأذن:

وردت الكلمة في اللغة، ففي الصحاح: "أذن له في الشيء إذنًا، وأَذِن بمعنى علم، وأذِن له استمع والأذان: الإعلام، ورجل أُذُن إذا كان يسمع مقالة كل أحد"(١).

الضرب على الأذن:

قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾(٢).

لو تتبعنا معاني لفظة (ضرب) وما صيغ منها في معجمات اللغة المعروفة لوجدناها كثيرة ومتعددة، إلا أنها تشترك في الأصل اللغوي للفظ، فأصل الضرب هو: "إيقاع شيء على شيء كضرب الشيءِ باليد، والعصا، والسيف، ونحوها"(٣).

"أي أنمناهم على طريقة التمثيل المبني على تشبيه الإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها، وتخصيص الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحجب عن الشعور عند النور لما أنها المحتاج إلى الحجب عادة، إذ هي الطريقة للتيقظ غالبًا لاسيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق"(٤).

ففي الضرب على الآذان إشارة إلى أن الموقظات من الخارج لم تصل إلى الآذان؛ لأنه كان هناك عائق عن نفوذ الأصوات، فمعنى (ضربنا) في النص

---

(١) الصحاح ٥/٢٠٦٨، ٢٠٦٩ (أ ذ ن).
(٢) الكهف: الآية (١١).
(٣) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن ١/٥٠٥ (ض ر ب).
(٤) إرشاد العقل السليم ٤/٢٣٨.

القرآني هنا هو النوم، فهي بمعنى (أنامهم)[١] سبحانه بقدرته، وذلك بدلالة استعمال الأذن التي تدل على أنهم لم يكونوا ليسمعوا شيئًا؛ لأنهم نائمون، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾، فلا يعقل أن يكون معنى الضرب هنا هو الحدث المعروف وإلا لكان المعنى أن الله تعالى كان يضرب أصحاب الكهف على آذانهم سنين عديدة، وهذا محال؛ لأن السياق السابق لهذه الآية يصف أهل الكهف بأنهم مؤمنون وقد فروا بإيمانهم، فكيف له تعالى أن يعذبهم بالضرب على آذانهم ؟!!، لذا ترجح دلالة أنه سبحانه وتعالى أنامهم، ثم هو سياق تنبيه للإنسان وتحذير على أن يحذر عواقب الكفر بإمكان البعث وكيفيته. يقول ابن عاشور: "وحسن هذه الاستعارة هنا أن المقصود من هذه القصة إثبات البعث بعد الموت، فكان في ذكر لفظ البعث تنبيه على أن في هذه الإفاقة دليلاً على إمكان البعث وكيفيته"[٢]، ويؤيد ذلك قول الزمخشري: "أي ضربنا عليها حجابًا من أن تسمع يعني: أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبهُهم فيها الأصوات"[٣]؛ وهذا من فصيح القرآن الذي لا يمكن أن يترجم بمعنى آخر[٤]، فالضرب الذي أداه هذا الفعل يراد به غلق الأذن، وسد منافذ السمع بإرادة إلاهية، ولهذا عقب ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) بعد ذكره هذه الآية بقوله: "إن أردت أن تنقله بلفظه لم يفهمه المنقول إليه (أي ضربنا) فإن قلت: أنمناهم سنين عددا لكنت مترجمًا للمعنى دون اللفظ"[٥].

وعي الأذن:

قال تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[٦].

الوَعْيُ "حِفْظ القلبِ الشيءَ"[٧] ... وفي حديث أبي أمامة: "لا يُعذِّبُ اللهُ قلبًا

(١) إصلاح الوجوه والنظائر، هارون بن موسى (ت١٧٠هـ)، تحقيق: حاتم صالح الضامن، وزارة الثقافة والإعلام، دائرة الآثار والتراث، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٨م، ص٢٢٨.
(٢) التحرير والتنوير ٢٦٩/١٥.
(٣) الكشاف ٧٠٥/٢.
(٤) مجمع البيان ٦٩٦/٦.
(٥) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت٢٧٦هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، ٢٢/١، ٢٣.
(٦) الحاقة: الآية (١٢).
(٧) لسان العرب ٢١٢/٢٠ (و ع ي).

وعى القرآن"، قال ابن الأثير: أي عَقَلَه إيمانًا به وعَمَلاً"[١]، وفي التاج: "وعاه" أي الشَّيءَ والحديث يَعِيه "وعيًا": حفظه وفهمه وقبلة فهو "وَاعٍ"[٢].

ولخص ابن فارس الدلالة المادية والعقلية بقوله: "الواو والحرف المعتل كلمة تدل على ضم شيء "ووعيت"، "وأوعيت" المتاع في الوعاء "أوعية"[٣]، ومن ومن الدلالات المحسوسة لمعنى "وعي" ما ذكره ابن منظور في معنى "وعاء"، أي: "طَرْفُ الشَّيءِ والجَمْعُ أَوْعِيةٌ ... ويُقَالُ لصَدرِ الرجلِ "وِعاء" عِلْمِه واعتِقادِهِ تَشْبيهًا بذلك، و"وَعَي" الشَّيءَ في الوِعاءِ و"أَوْعاه" جمَعَه فيهِ"[٤]، وقد أضاف القرآن الكريم هذه الدلالة إلى حاسة السمع في الإنسان، (أذن واعية): أي: "من شأنها أن تعي وتحفظ ما سمعت به ولا تضيعه بترك العمل، وكل ما حفظته في نفسك فقد وعيته وما حفظته في غير نفسك فقد أوعيته. وقيل أذن واعية على التوحيد والتنكير للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السَّواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لا يبالي بهم بالة وإن ملئوا ما بين الخافقين[٥]، وهكذا اتضح السياق الوصف لتلك المفردة، ودراستها بجانبيها المادي والمعنوي.

وقـــر الأذن:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾[٦].

كثيرًا ما يكتسب اللفظ القرآني معناه الخاص من خلال ارتباطه بلفظ معين خصص معناه وحدده السياق، فأصل الدلالة لمادة (وقر) مادية محسوسة تعني: الحمل الثقيل، ثم ينسحب هذا على الصمم أو ما دونه من صفة السمع، وهو ما عُرف بـ(الوقر)، وابن فارس يعرفه بأنه: "أصل يدل على ثقل في الشيء منه (الوقر) في الأذن، و(الوقر): الحمل الثقيل، يقال نخلة (موقورة) ذات حمل

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ ـ١٩٧٩م، ٢٠٨/٥.
(٢) تاج العروس ٣٩٣/١ (و ع ي).
(٣) مقاييس اللغة ١٢٤/٦ (و ع ي).
(٤) لسان العرب ٣٩٧/١٥ (و ع ي).
(٥) الكشاف ٦٠٠/٤.
(٦) فصلت: من الآية (٥).

كثير"[١]. فقد غلب على هذا الأصل في دلالته المعنى المجازي في عدم الطاعة والاستجابة لنداء الحق تبارك وتعالى.

ومن الاستعمالات المجازية لهذه اللفظة ما ذكره الزمخشري: "(أَوْقَرَها) الدَّيْنُ، وبأذنه (وَقْر) ثِقَلٌ، وأذنٌ (وَقِرَةٌ) و(مَوْقُورَة)... و(وقِرتْ) أُذُنِي عن استماع كلامه، قال:

كَمْ كَلاَمٍ سيّيءٍ قد (وَقِرَتْ) أُذُني عنه وما بي من صَمَمْ

ورجال (وُقْر): رزان، و(قر) في مجلسك: و(وقّرته) إذ بجّلته"[٢].

يتضح من العبارات السابقة أن الزمخشري عد (الوَقْر) في الأذن من باب المجاز، ويشرح عادل فاخوري علاقة الدلالة المجازية بالدلالة الحقيقية بمنهج نظري، فيقول: "بما أن مدلول الألفاظ عامة يؤلف مجموعة من الصفات من حيث المفهوم أو مجموعة من الأجزاء من جهة كونه أمرًا خارجيًا، كان من البديهي لتعيين العلاقة بين المدلول الأصلي والمدلول المجازي أن ينطلق علم البيان من النِّسَب القائمة بين أية مجموعتين من الصفات أو من الأجزاء"[٣].

فضلاً عن التشبيه الوارد في هذه الآية، وقد جاء التشبيه لتتضح حالة كفر هذا الرجل أتم إيضاح مع القرآن الكريم، فكأن هذا الرجل المعرض عن الآيات المستكبر عنها لم يسمع أصلاً هذه الآيات، وإن هذا الرجل في أذنيه وقر، وهو الثقل والصمم، المانع من السماع ومن كانت هذه حالته فأنّي له أن يلتفت إلى هذه الآيات، أو ينتفع بما جاء منها؟ أي أن انعدام السمع دلالة على وجود المانع من وصولها إليه، أي شبه الرجل الذي يسمع الآيات بحال من فقد السمع؛ وذلك لوجود المرض في أذنيه، وإن هذا المرض ثقيل وشديد بدليل مجيء (كأن) في التشبيه مشددة ثقيلة، فكان هذا التشديد إشارة إلى ثقل الوقر في أذنيه[٤]، والذي

---

(١) مقاييس اللغة ٣٢/٢ (و ق ر).

(٢) أساس البلاغة ٤٩/١ (و ق ر)، والبيت من بحر الوافر.

(٣) علم الدلالة عند العرب، دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة، عادل الفاخوري، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٥م، ص٥٣.

(٤) من بلاغة النظم القرآن (دراسة تحليلية لمسائل المعاني والبيان والبديع في آيات الذكر الحكيم)، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط١، ص٢٦٦.

دلّ على هذا المعنى سياق الكلام، ففي ظل قراءة الكلمة في سياقها تعني الحصول على الفهم والتيسير، وبالتالي يتم التوقف عند حدود تلك المفاهيم.

الأصبـــــع:

لقد جاء القرآن الكريم على ذكر الإصبع، وذلك في سياق الحديث عن المنافقين، وأن قلوبهم في حال شكّهم وكفرهم كالمطر والرعد، قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[١].

يتضمن سياق الآية وصفاً للمشقة التي يكابدها الكافرون، فهم يسيرون في جو ماطر، وهذا يدل على أن الماء والوحل يعيقان مشيهم، وأن الظلام يحيط بهم، وسماع أصوات صاخبة مخيفة، فاستخدموا الأصابع في وضع آذانهم بدلاً من أطراف الأصابع، فذهب الزمخشري على أن استخدام الأصابع بدل من الأنامل، أو أطراف الأصابع من باب الاتساع في اللغة، وعلل مجيء الاسم العام (الأصابع) بدلاً من الاسم الخاص (السبابة)؛ "لأن السبابة فعالة من السب فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن، ألا ترى أنهم قد استبشعوها فكنوْا عنها بالمسّبحة والسباحة والمهلّلة والدعاءة"[٢]. وذهب الآلوسي إلى قوله: "والمعهود إدخال السبابة، فكأنهم من فرط دهشتهم يدخلون أي إصبع كانت ولا يسلكون المعهود"[٣]، وفي الآية إعجاز علمي "أي أن الصواعق ظاهرة تصاحب البرق والرعد والسحاب في بعض الأحيان، وهي ذات أثر فعال قاتل في النفس، ولذا كان رسول الله ﷺ إذا سَمِعَ صوْتَ الرَّعْدِ والصَّوَاعِقِ قال: (اللَّهُمَّ لا تَقْتُلنَا بغَضَبِكَ، ولا تُهلِكْنَا بعذابِكَ، وعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ)"[٤].

---

(١) البقرة: الآية (١٩).
(٢) الكشاف ١/٨٤، ٨٥.
(٣) روح المعاني ١/١٧٥.
(٤) الإعجاز العلمي والبلاغي في القرآن الكريم، ص٣٨، وينظر: سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحّاك (ت:٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد فؤاد شاكر وآخرون، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ ـ١٩٧٥م، ٥/٥٠٣.

وبهذا التوضيح نفهم لجوء الكافرين إلى إغلاق آذانهم خوفًا من الصواعق، فهم يحاولون حماية أجسامهم بوساطة إغلاق آذانهم، وكأن منع الصوت من الوصول إلى الأذن يحمي الجسم!

وحالة الكراهية التي تتمثل بقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾[١].

إن وضع رأس الأصبع في الأذن لكفها عن السماع يحمل دلالتين اثنتين، هما:

إحداهما: الامتناع عن سماع الأصوات القوية الشديدة المزعجة، قال أحمد بن المنير: "لأن فيه إشعارًا بأنهم يبالغون في إدخال أصابعهم في آذانهم فوق العادة المعتادة في ذلك فرارًا من شدة الصوت"[٢].

وثانيهما: الامتناع عن الاستماع لدعوة الحق، وهذا يتبين في قول الزمخشري: "سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة"[٣].

"وحكمة التعبير عن الأنامل بالأصابع، الإشارة إلى أنهم يدخلون أناملهم في آذانهم بغير المعتاد فرارًا من الشدة فكأنهم جعلوا الأصابع"[٤]، وذكر بعضهم: "أن هذا من نسبة الفعل الذي في نفس الأمر للجزء إلى الكل ولا يسمى مجازًا، كقولك: ضربت زيدًا ومسحت بالمنديل، فلا يكون مجازًا ولو لم تضربه كله ولا مسحت بكله، وفيه تعسف؛ لأن نسبة مطلق الجعل للأصابع كثيرًا ما يراد به الكل، فلولا الآذان لجرى على أصله"[٥]، ففي ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل[٦]، وفي وضع الأصابع في الآذان دليل على ما تعتمل فيه قلوبهم من قهر وحقد.

---

(١) نوح: من الآية (٧).
(٢) ينظر: الانتصاف بحاشية الكشاف لابن المنير الإسكندري (ت٦٨٣هـ) ١/٨٤.
(٣) الكشاف ٤/٦١٦.
(٤) البرهان في علوم القرآن ١/٢٥٧.
(٥) شرح تلخيص المفتاح، سعد الدين التفتازاني، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م.
(٦) علم البيان في الدراسات البلاغية، علي البدري، ديوان دار نشر، ط٢، ١٤٠٤هـ ــــ١٩٨٤، ص١٦٦.

الأنـــــف:

قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾(١).

الأنف: عضو التنفس وهو اسمُ لمجمُوع المَنْخرَيْن والحَاجز، والأنُف من كلِّ شَيءٍ أَوَّلُهُ، والأنف: المَنْخَرُ معروفُ، والعربُ تسمِّى الأَنْفَ أَنْفَين(٢). وسم به القرآن الكريم أنف الوليد بن المغيرة.

وفي هذا الاستعمال صورة ساخرة ورد ذكرها في سياق تهكمي، يظهر فيه هذا الشخص بأنف الفيل؛ لأن الإنسان مهما يكن قبيحًا لا يملك الخرطوم، والخرطوم إما للفيل، وإما للخنزير يقول الزمخشري: "الوجه أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدمه له، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة؛ لأن السمة على الوجه شين وإذلال"(٣).

البطـــــن:

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾(٤).

"البطن: جَوْفُ كل شيءٍ خِلافُ الظهر، كبطن الأرض وظهرها، جمع أبطُنُ وبطونُ، ومن المجاز: البَطْنُ دون القبيلة، أو دونَ الفخذ وفوقَ العِمارَةِ، مذكر، والبطن جوف كلِّ شيءٍ، وتصغيره بُطين(٥).

جاء في البحر المحيط: "ولما ذكر أنهم يملأون بطونهم من شجرة الزقوم للجوع الذي يلحقهم أو لإكراههم على الأكل وملء البطون زيادة في عذابهم، ذكر ما يسقون لغلبة العطش، وهو ما يمزج لهم من الحميم، ولما كان الأكل يعتقبه ملء البطن كان العطف بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَالِؤُونَ﴾، ولما كان الشرب يكثر تراخيه عن الأكل، أتي بلفظ (ثم) المقتضية المهلة، أو لما امتلأت بطونهم من ثمرة الشجرة وهو حار أحرق بطونهم وعطشهم فأخر سقيهم زمانًا ليزدادوا بالعطش عذابًا إلى عذابهم، ثم سقوا ما هو أحر وآلم وأكره"(٦)، وسياق هذا لا

---

(١) القلم: الآية (١٦).
(٢) ينظر: تاج العروس ٤٠/٢٣، ولسان العرب ١٢/٩ (أ ن ف).
(٣) الكشاف ٥٨٨/٤.
(٤) الصافات: الآية (٦٦).
(٥) تاج العروس ٢٦٠/٣٤ (ب ط ن)، ويوافقه لسان العرب ٥٢/١٣ (ب ط ن).
(٦) البحر المحيط ١٠٧/٩.

يقتضي صيغة الإسراع، بل صيغة تتابع الأحداث؛ لأنه يدخل في باب الإخبار والموعظة، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾(٢)، فذكر البطون للدلالة والتأكيد على حقيقة الأكل، فإذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون نارًا تتأجج في بطونهم يوم القيامة، إذ قد يستعمل مجازًا في مثل: أكل فلان أرضًا ونحوه، وفي ذكرها تنبيه على جشعهم، وأنهم باعوا آخرتهم بحظِّهم من الطعام، فسمَّي ما أكلوه من الرّشاء نارًا؛ لأنه يؤدي بهم إلى النار؛ ولأنهم أكلوا "ما يجر ــ إذا امتلأت بطونهم ــ نارًا" فكأنهم أكلوا النار، "يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأنفه وعينيه يعْرفه من رآه بآكل مال اليتيم"(٣)، فتواق الحل واللفظ، وظهرت دلالة السياق.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾(٤).

الاستعارة هنا تتجلى في فعل ﴿يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ إذ المشي لا يتم إلا بواسطة الأرجل وليس للزواحف أرجل كي تتم عملية المشي بواسطتها، ولا يكون المشي إلا للإنسان أو الحيوان، ويدلنا على هذا المعنى سياق الكلام، إذ إنه منسق على أساس القوي حتى يصل إلى الضعيف، فالذي يمشي على بطنه أقوى من الذي يمشى على رجليه، والذي يمشى على رجليه أكثر قوة من الذي يمشى وهو على أربع"(٥)، إذن الآية تتابع كلامها بفعل يمشي، والأولى مجاراة الآية في النسق اللفظي، فالانزياح(٦) ههنا قام بمهمة تنسيق البنية وعدم تبعثرها.

الجبين:

(١) البقرة: من الآية (١٧٤).
(٢) النساء: الآية (١٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٢٣.
(٤) النور: من الآية (٤٥).
(٥) الإبداع البياني في القرآن العظيم والأمثال والتشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية مع الإمتاع بروائع الإبداع، الشيخ محمد علي الصباوني، ط١، بيروت، ص٢٢٣.
(٦) الانزياح هو: "عبارة عن خرق المعيارية أو كلام ابتعد عن الدرجة التعبيرية، وهو تجاوز كلام الناس العادي والعدول عنه إلى لغة غير مألوفة". (ينظر: الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، دار المحبة، ط١، دمشق، ص٧٥، ٧٦.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾[١].

عظمان مكتنفا الجبهة من جانبيها، فيما بين الحاجبين، والجمع أجبنة وجُبُن[٢]. فعندما استسلم إسماعيل وإبراهيم وانقادا وأسلما أمرهما لله، وصرع إبراهيم إسماعيل على شقه، "فوقع جبينه على الأرض، وهو أحد جانبي الجبهة، وقيل أكَبَّهُ على وجهه بإشارته لئلا يرى فيه تغيرًا يرقّ له فلا يذبحه"[٣]، وقد يظن البعض أن الجبين معناه الجبهة في هذه الآية، ولكن المعنى الحقيقي للجبين في هذه الآية يوضحه الإمام ابن الجوزي، يقول: "قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾، قال ابن قتيبة: "أي صرَعه على جَبينه فصار أحد جبينيه على الأرض، وهما جبينان والجبهةُ بينهما، وهي:ما أصاب الأرض في السجود"[٤]،والناس لا يكادون يفرقون يفرقون بين الجبين والجبهة، فالجبهة مسجد الرجل الذي يصيبه ندب السجود، والجبينان يكتنفانها من كل جنب"[٥]، ومعنى الآية: "أي انقاد لأمر الله"[٦]، "ففي هذا كناية عن كمال الطاعة من الولد، وكمال الانقياد من الوالد"[٧]، وبيَّن مسار السياق الحالي أن للآية سبب نزول، وصار السياق في هذا محددًا للدلالة ومُبينًا المراد.

الجلد:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٨].

يدل الأصل اللغوي (ج ل د) على القوة والصلابة[٩]، و"الجِلْد بالكسر: الجمع الجمع أَجْلادُ وجُلُودُ، والجِلْدةُ أخصّ من الجِلْد، والجِلْد من الحيوان: ظاهرُ بشَرتِه،

---

(١) الصافات: الآية (١٠٣).
(٢) المخصص ٧٦/١ (ج ب ن).
(٣) أنوار التنزيل ١٥/٥.
(٤) غريب القرآن، ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت٢٧٦هـ)، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ ـ١٩٧٨م، ٣٧٣/١.
(٥) زاد المسير ٣٠٢/٦.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ٩٨/١٥.
(٧) أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم، ص٢٠٩.
(٨) الزمر: من الآية (٢٣).
(٩) مقاييس اللغة ٤٧١/١ (ج ل د).

والجلد: غِشاءُ جَسَد الحيوان، ويقال جِلْدَةُ العين، وأجلاَدُ الإنسانِ وتجاليدُه: جماعة شَخصِهِ أو جسمُهُ وبدنُه؛ لأن الجلد محيُطَ بهما، ويقال: فَلانٌ عظيمُ الأجلادِ والتجاليدِ: إذا كان ضَخْمًا قَويَّ الأعضاءِ والجِسم"(١).

وجاءت لفظة (الجلود) في القرآن الكريم (تسع مرات) كانت في (ثمان مرات) مع الإنسان للدلالة على عموم الجلد، وفي سياق القشعريرة من خشية الله. ويطلق الجلد على الغلاف الواسع المحيط بالجسم حتى يحافظ على أعضائه ويقيها العوامل الخارجية كالبرد والحر والجراثيم وغيرها، ويحتوي على سلسلة أجهزة عصبية(٢).

فالجلود في هذه الآية الأبدان، ويومئ تعميمها إلى كمال سلطان القرآن الكريم وحسن أثره وتمكنه من مواطن الإحساس كلها، والاقشعرار هو تغيير في جلد الإنسان عند الخوف، وقيل المراد بالجلود القلوب، "والمعنى: أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم، ثم إذا ذكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة: لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة"(٣).

ولكن ما هو سر الجلد وهل له علاقة بالألم؟

قيل في ذلك: "إن الجلد آلة الإحساس بالحر والبرد، وهو الذي ينقل الإحساس من العالم الخارجي، وعلى سطح الجلد جسيمات مختصة بأنماط الحس المختلف للحر والبرد والألم والمفاصل والأوتار والضغط واللمس وغيرها. أما اللمس فهو أدق وهو للألم أعجب وأعقد وفي سرعة هائلة، فإن الجلد باللمس يميز الورقة من القماش، والحس العميق للألم ينقل إلى الدماغ أخبار العضلات والمفاصل والعظام والأوتار، ومن هنا ندري لماذا نوه سبحانه وتعالى بالجلد في

(١) تاج العروس ٥٠٦/٧ (ج ل د).
(٢) ينظر: الجسم البشري، محمد فايز المطّ، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٩م، ج١، ص٥١٨.
(٣) الكشاف ١٢٤/٤.

العذاب؛ لأنه موضع الإحساس، ويقشعر جلد الإنسان من الخوف والألم، ويلين عند الراحة والاطمئنان"(١).

وجاءت مخصوصة بعضو من الأعضاء كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٣).

من عادة القرآن الكريم التعبير عن مثل هذه الألفاظ بألفاظ أخرى مستحبة ومقبولة اجتماعيًا، ومن ذلك تفسير بعض العلماء لهذه الآية الكريمة إذ نقل الطبري أن: "المراد بالجلود هنا الفروج عن طريق الكناية"(٤).

"كيف تحرك الفكر بلفظ الجلود من الدلالة على سطح الجسم إلى الدلالة على الآلة الحسية فيه؟ تصورنا أن التأويل بني على التفكر في الذنوب التي يرتكبها الإنسان وجلده آياته لمباشرة تلك الذنوب، وسبيله إلى الإدراك، فوجدوا أن ملامسة النساء التي أولوها بالجماع تخدم تأويل الجلد بالفرج في سياق شهادة الأعضاء على أصحابها، ما هي المعاصي التي يرتكبها الإنسان وجلد أداتها أكثر من فعل المحرم الجنسي؟ كأن الجلد بـ(مصافحة الجسد الجسد) ممهد للجماع، فيكون التعبير من نوع الكناية بالشيء عما يَحْمِل من أدوات كناية عن العلم بها"(٥). وقد ترتبط حاسة اللمس في الجلد بحاسة أخرى في سياق وردت فيه الآيات تتحدث عن الجحود بنعم الله. من ذلك قوله تعالى في حق الكافرين في

(١) الإعجاز العلمي والبلاغي في القرآن الكريم، ص٩٦.
(٢) فصلت: الآيات (١٩ــ٢١).
(٣) فصلت: الآية (٢٢).
(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن ٩/٩.
(٥) نحو الصوت ونحو المعنى، نعيم علوية، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٢م، ص٧٧، ٧٨.

جهنم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[١].

موطن الشاهد في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾، أي "ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع، كقولك للعزيز: أعزك الله: أي أدامك على عزك وزادك فيه"[٢]، أي: كلما انشوت جلودهم واحترقت يبدلهم الله جلودًا غيرها[٣]، ليذوقوا ذلك العذاب في نار جهنم.

ولقد وظف القرآن الكريم هذه الحاسة (الذوق) توظيفًا سياقيًا في التعبير عن الإحساس بالألم؛ "لأن حس الذائق لإدراك ما يذوقه قوي"[٤]، وهذه الحاسة أشد الحواس وأقواها إدراكًا في تذوق الأشياء عند الإنسان، فلا جرم حصل من لفظ الإذاقة ألم العذاب بالإدراك بآلة الذوق[٥]، والآلة هنا ليس اللسان، وإنما الجلد، والحاسة هي اللمس؛ لأن العذاب حاصل من الجلد ﴿نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾، وبناء على ذلك يمكن تعليل كثرة استعمال القرآن لاستعارة الذوق في آي كثيرة حفل بها سواء التي أتت في سياق العذاب وهي أكثرها[٦]، أو التي أتت في سياق النعيم والرحمة[٧]، فهي تضاعف الإحساس بالشيء، ومن ثم تأثيره في النفس.

قال صاحب التحرير والتنوير: "وقوله: ﴿لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾ تعليل لقوله: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ﴾؛ لأن الجلد هو الذي يوصل إحساس العذاب إلى النفس بحسب عادة

---

(١) النساء: الآية (٥٦).
(٢) الكشاف ٥٢٢/١.
(٣) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، إسماعيل البروسوي، اختصار وتحقيق الشيخ: محمد علي الصابوني، الدار الوطنية للنشر والتوزيع، بغداد، ط١، ١٤١٠هـ ـــ ١٩٩٠م، ج١، ص٣٤٥.
(٤) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ص٢٧٥.
(٥) ينظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي إبراهيم العلوي (ت:٧٤٩هـ)، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩١٤م، ص٢٣٧.
(٦) ينظر على سبيل المثال السور الآتية: آل عمران: الآية (١٠٦)؛ الأنفال: الآية (٣٥)؛ يونس: يونس: الآية (٥٢)، فاطر: الآية (٣٧)، ص: الآيتان (٨)، (٥٧)؛ الدخان: الآية (٤٩)؛ النبأ: الآية (٢٤).
(٧) ينظر على سبيل المثال السور الآتية: يونس: الآية (٢١)؛ هود: الآيتان (٩، ١٠)؛ الروم: الآية (٣٣)؛ الشورى: الآية (٤٨)؛ الدخان: الآية (٥٦).

خلق الله تعالى، فلو لم يبدل الجلد بعد احتراقه لما وصل عذاب النار إلى النفس"(١)، وأوثر التعبير بالماضي في استبدال الجلود بعد نضجها ﴿نَضِجَتْ﴾، و﴿بَدَّلْنَاهُمْ﴾ للإيحاء بأن هذا الأمر من الأشياء العظيمة التي لم توجد، "يعني كلما نضجوا واحترقوا وانتهوا إلى الهلاك أعطيناهم قوة جديدة من الحياة بحيث ظنواْ أنهم الآن حَدَثوا ووجدوا، فيكون المقصود بيان دوام العذاب وعدم انقطاعه"(٢)، فالتعبير القرآني جعل متعلقات حاسة الذوق محل متعلقات حاسة اللمس، إذ قال ﴿لِيَذُوقُواْ﴾؛ ليكون تناوب(٣) بين حاستي اللمس والذوق، "فيجمع في العذاب شدته وإيلامه بطول مدته ودوامه، ويكون المدرك له لا عذر له يشغله، وإنما هو على أتم ما يكون من الإدراك فيحصل الألم العظيم"(٤).

كما يظهر في سياق الآية استخدام الجلود ولم يستخدم اللحوم، وإن كانت نار جهنم ستأكلها جميعًا، وتأكل العظم من بعدهما، وإعجاز ذلك أن الجلود هي مركز الإحساس في جسم الإنسان، والغرض الفعلي من السياق هو الشعور بالعذاب، والتألم منه، وخلايا الإحساس لا تتواجد إلا في الجلد، لذلك كان استبدال الجلد بعد نضجه لاستمرار الإحساس بالألم والعذاب.

"إنه مشهد لا يكاد ينتهي، مشهد شاخص متكرر، يشخص له الخيال، ولا ينصرف عنه! إنه الهول، وللهول جاذبية آسرة قاهرة! والسياق يرسم ذلك المشهد ويكرره بلفظ واحد ﴿كُلَّمَا﴾، ويرسمه كذلك عنيفًا مفزعًا بشطر جملة ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ ويرسمه عجيبًا خارقًا للمألوف بتكملة الجملة ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، ويحمل الهول الرهيب المفزع العنيف كله في جملة شرطية واحدة لا تزيد"(٥). ولا شك أن مثل هذا الاتجاه في تصوير النزعة لهو الأبلغ والأكثر تأثيرًا بما فيه من إشراك حواس القارئ في الإحساس بالعذاب لدقة الوصف.

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٩٠.
(٢) مفاتيح الغيب ١٠/١٠٦.
(٣) هو: وصف مدركات حاسة بصفات مدركات حاسة أخرى، فتعطى المسموعات ألوانًا، وتصير المشمومات أنغامًا، وتصبح المرئيات عاطرة. (ينظر: النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٢م، ص٤١٨).
(٤) تنوير الأذهان ٤/٢١.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/٦٨٤.

الجنـــــب:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾(١).

أصل معنى الجَنْب الجارحة، الجَنْبُ والجانِبُ والجَنَبةُ مُحركة، شِقُّ الإنسانِ وغيره، وجمعه جُنوبُ وجوانبَ وجنائب، وجَنْبُ الإنسان هو ما تحت إبْطِه إلى كَشْحِه، يقال: قعدتُ إلى جَنْب فلان وجانبه، بمعنى: وجُنِبَ الرَّجُلُ شكا جنبه"(٢)، قيل: معناه يوم تحمى النار "على الجهات الأربع مقاديمُهُم ومآخيرُهُم وجنوبُهُم"(٣)، ثم يذكر في نفس السياق قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(٤)، وقال جل من شأنه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا﴾(٥)، "والنأي بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره"(٦)، وهنا كناية، والمعنى: تتجافى جنوبهم حال كونهم داعين ربهم خوفًا من عذابه وطمعًا في رحمته(٧)، ومن خلال الآيات السابقة تبين أن اللفظ لا يدل في السياق إلا على معنى واحد، فالألفاظ قد تدل على أكثر من معنى خارج السياق، لكنها لا تدل في السياق إلا على المعنى الذي يفهمه المخاطب بمعونة القرائن السياقية.

الدبـــــر:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولًا﴾(٨).

الدُّبر: نقيضَ القُبُل، ودُبُر كلِّ شيءٍ عَقِبُه ومُؤخَّرُه، وجمعُها أدبارُ، ودُبُر البيت مؤخَّرُهُ وزاويتُه"(٩)، أي لا يجعلون عدوهم وراءهم، ولا يعطوهم ظهورهم

---

(١) التوبة: من الآية (٣٥).
(٢) تاج العروس ١٨٣/٢ (ج ن ب).
(٣) الكشاف ٢٦٩/٢.
(٤) سورة السجدة: الآية (١٦).
(٥) سورة الإسراء: الآية (٨٣).
(٦) الكشاف ٦٩٠/٢.
(٧) فتح القدير ٣١٦/٥.
(٨) الأحزاب: الآية (١٥).
(٩) لسان العرب ٢٦٨/٤ (د ب ر).

دلالة على الفرار والهزيمة، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ﴾(١)، وما كان للكلمة أن تتخلف عن إعطاء هذه الدلالة فيما وردت من مواضع في القرآن الكريم(٢)، فتوافق الحال واللفظ. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾(٣)، وقوله جل شأنه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾(٤).

إن ضرب الملائكة لوجوه وأدبار الكافرين "لأن الخزي والنكال فيهما أشد"(٥)، وفيه معنى الإحاطة والاستيعاب لجميع الجهات، إذ تدل الوجوه على مقدمة الأبدان والأدبار على خلافها، وضرب الوجوه والأدبار بهذا المعنى يراد به الإزراء والإذلال(٦)، فكان لهذا الاختلاف أثر في تباين السياقات، والتي من خلالها يلاحظ التغاير في الألفاظ، فكان التوافق اللفظي والمعنوي.

الـــــرأس:

قال تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾(٧).

في معاجم اللغة: "الرأس عضو معروف ورأسُ كُلِّ شيءٍ: أعلاه"(٨)، وجاء في الجمهرة: "الرأس معروف رأس الإنسان وغيره"(٩)، ويدل على "تجمع وارتفاع، فالرأس رأس الإنسان وغيره أو الجماعة الضخمة"(١٠).

تركيب مألوف يتفق مع النظام النحوي، لكنه غير مألوف من الناحية الدلالية، فالرأس لا يشتعل بالشيب، لكن هذا التركيب الصحيح نحويًا المعدول

---

(١) آل عمران: من الآية (١١١).
(٢) ينظر: الآيات: النساء: من الآية (٤٧)، المائدة: من الآية (٢١)، الأنفال: من الآيات ٧، ١٥، ١٥، ١٦، الأنبياء: من الآية (٥٧)، غافر: من الآية (٣٣)، القمر: من الآية (٤٥)، المدثر: من الآية (٢٣).
(٣) الأنفال: من الآية (٥٠).
(٤) محمد: من الآية (٢٧).
(٥) البحر المحيط ٣٣٦/٥.
(٦) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٩٧هـ، ٤٥/٩.
(٧) مريم: من الآية (٤).
(٨) ينظر: لسان العرب ٩١/٦ (ر أ س)، والمصباح المنير ٢٤٥/١.
(٩) جمهرة اللغة، دار العلم، ط١، ١٩٨٧م، ٣٤٨/٣ (ر أ س).
(١٠) مقاييس اللغة ٤٧١/٢ (ر أ س).

دلاليًا أدى إلى معنى ثاني بليغًا واسعًا لا يؤديه التركيب المألوف من الناحية الدلالية، فهو يدل على كثرة الشيب في الرأس وسرعة انتشاره، قال ابن جني: "واعلم أن العرب تؤثر التجانس والتشابه وحمل الفرع على الأصل"(١)، وقال: "اعلم أنه ليس شيء يخرج من بابه إلى غيره إلا لأمر كان وهو على بابه ملاحظًا له"(٢).

وهذا المعنى يزداد روعة وجمالاً بمجيء (شيبًا) تمييز مع أنه فاعل في المعنى فإنه هنا "يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمول، وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استغرقه، وعمَّ جملته، حتى لم يبق من السواد شيء أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به"(٣). وواضح مما تقدم التراكم الدلالي الحاصل باستعارة ضياء النار بدل ضياء الشيب "فهو إخراج الظاهر إلى ما هو أظهر منه؛ ولأنه لا يتلافى انتشاره في الرأس كما لا يتلافى اشتعال النار"(٤).

ويستمر السياق في عرض المشهد موحيًا بتمكن الشيب، "أي أن المتلقي يستكشف سريعًا كأن زكريا عندما طلب الولد، إنما كان شعر رأسه الأبيض قد غطى ساحة الرأس بأكملها، أي أن عملية الاشتعال، في لحظة دعاء زكريا، كانت قد اجتازت مرحلة التدرج ووصلت إلى مرحلة الاشتعال الكامل، كما هو الأمر عند اشتعال جميع الأجزاء للشيء، بحيث لا ترى أثرًا لجزء من الشعر الأسود، بل الشعر جميعًا قد غمره البياض"(٥)، وهذا أمر تراكمت فيه دلالات كثيرة للفعل (اشتعل) مع سياق يصور لنا مشهد نراه ونحسه ونتلمسه من خلال تعبير (اشتعل الرأس شيبًا)، فتوافق الحال واللفظ، وظهرت قيمة السياق في تحديد دلالة اللفظ المتأثرة بالمقام والمقال.

تعقيـــــب:

---

(١) الخصائص ١/١١٢.
(٢) المصدر السابق ٢/٣٦٠.
(٣) ينظر: دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط٣، ١٤١٣هـ ـ١٩٩٢م ١/١٠٠، والكشاف ٣/٤، "ومن ثمَّ فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة".
(٤) كتاب الصناعتين، العسكري ١/٢٧٢.
(٥) دراسات فنية في سور القرآن، ص٣٦٦.

ليس النزاع في المعنى المفهوم من هذه الآية، فالكل يتفقون على أن معنى الآية: هو سريان الشيب في الرأس، فلا نزاع في أن هذا التركيب لا يدل إلا على هذا المعنى، ولكن النزاع في كيفية التوصل إلى هذا المعنى، فلابد من الإقرار بالمعنى العام للاشتعال الذي هو التهاب النار في الحطب. يقول الراغب: "الشعل التهاب النار، يقال شعلة من النار، وقد أشعلتها، والشعيلة الفتيلة إذا كانت مشتعلة"(١)، وهذا التركيب إنما جاء تشبيهًا بذلك الأصل، فلو قال قائل اشتعل الرأس، وسكت، لتبادر إلى الذهن المعنى العام للاشتعال، الذي هو التهاب النار، ولكن أراد في هذا الإسناد في الآية بلفظ (الشيب) هو الذي آثار العقل إلى ضرورة الانتقال من معنى الاشتعال المطلق إلى صفة من صفاته تناسب سياق هذا التركيب، وهذه الصورة تثير في الخيال حركة تخيلية سريعة: حركة الاشتعال التي تتناول الرأس في لحظة "وهي حركة جميلة تلمس الحس وتثير الخيال، وتشرك النظر والمخيلة في تذوق ما فيها من جمال، إذ إن جمالها يتجلى في أنها منحت حركة الاشتعال للرأس، وليست له في الحقيقة، وفي التعبير بالاشتعال عن الشيب جمال، وفي إسناد الاشتعال إلى الرأس جمال آخر يكمل أحدهما الآخر"(٢).

الرجـــل:

ومن سياقات هذا النوع الآية التي ورد فيها شهادة الأيدي والأرجل على الإنسان يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٣).

الرجل: "قَدَم الإنسان وغيره من أصل الفَخِذِ إلى القَدَمِ"(٤).

اعتاد الكفار على الكذب في الدنيا، وظنوا أنهم يستطيعون أن يحققوا عن طريقه فوزًا ونفعًا، وهكذا جاءت الآية لتسد عليهم هذا الباب الذي اعتادوا أن يدخلوا منه ويخرجوا منه، ويوم القيامة يختم الله عز وجل على أفواههم ويعقد

(١) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ٤٥٧/١.
(٢) نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، صلاح عبدالفتاح الخالدي، ١٩٨٣م، ص١٣١، ١٣٢، ١٤٥.
(٣) يس: الآية(٦٥)، واللفظ نفسه في فصلت: الآيات:(١٩ــ٢٣)، والنور: من الآية(٢٤).
(٤) ينظر: لسان العرب ٢٦٧/١١ (رجل).

ألسنتهم، وتترك الشهادة إلى غير اللسان من أعضاء جسمه، بعد أن رفض هذا الإنسان شهادة الناس و الملائكة عليه، فتشهد عليهم أعضاؤهم على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم، وعلى غير ما كانوا ينتظرون؛ لأنهم كانوا عنها يدافعون ويكذبون في الدنيا، وبعدها تنقلب عليهم في الآخرة، "فالاستعارة تبعية أي اليوم نمنع أفواههم من الكلام منعًا شبيهًا بالختم"[١]، ويستمر السياق على ذلك حتى يُظهر لهم خبيئة نفوسهم في عصيانهم، فجاء التقابل في الآية بصورة مختلفة في جانب الشاهدين، فلم يقل: (وتشهد أيديهم وأرجلهم)، ولا (تكلمنا أيديهم وأرجلهم)، مع أن كليهما يشهد ويتكلم ضد صاحبه، ولكن جاء التقابل في النظم الكريم، بذكر الكلام مع الأيدي، والشهادة مع الأرجل، فحذف من كل ما أثبت في الأخرى، على سبيل الحذف المقابلي[٢]، فأثبت الكلام للأيدي أولاً دليلاً على حذفه من جانب الأرجل، وأثبت الشهادة للأرجل ثانيًا دليلاً على حذفها من جانب الأيدي أولاً "لأن الأفعال تسند إلى الأيدي"[٣]، وعلى هذا يكون تقدير الآية الكريمة: وتكلمنا أيديهم فتشهد، وتشهد أرجلهم فتتكلم. إنها المفاجأة الهائلة في هذا الموقف العصيب ... وسلطان الله الذي تطيفه الجوارح وتستجيب له، حتى إذا ما حشر أعداء الله كالقطيع أمام النار، إذ بشهود عليهم لم يكونوا في الحسبان، إنها أسماعهم وأبصارهم وجلودهم، تخرج عليهم لتستجيب لربها طائعة مستسلمة، تروي عنهم ما حسبوه سرًا، لقد كانوا يظنون أنهم يستترون من الله، ويظنون أنه لا يراهم، ولم يكونوا ليستخفوا من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم، وكيف وهم معهم ومن أنفسهم؟ ها هي الآن تفضح ما حسبوه مستورًا عن الخلق أجمعين وعن رب العالمين[٤].

---

(١) روح المعاني ٤١/١٢.
(٢) "وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان فيحذف من واحد منهما مقابلة لدلالة الآخر عليه". ينظر: البرهان في علوم القرآن ١٢٩/٣.
(٣) مفاتيح الغيب ٣٠٢/٢٦.
(٤) إعجاز القرآن في حواس الإنسان، دراسة في الأنف والأذن والحنجرة في ضوء الطب وعلوم القرآن والحديث، د. محمد كمال عبد العزيز، مكتبة السباعي، ومكتبة القرآن، القاهرة، ص٥٩.

وتظهر بلاغة هذا الفن في نسبة الكلام للأيدي، والشهادة للأرجل، مع أن الرِّجل تتكلم قبل اليد يوم القيامة كما ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ قوله: "وإِنَّ أَوَّلَ ما يُعْرِبُ عَنْ أَحَدكُمْ فَخذُهُ"(١)، وقوله أيضًا ﷺ: "يَجيئُونَ يومَ القيامةِ وعَلَى أَفْوَاههِم الفِدَامُ(٢)، وإِنَّ أَوَّلَ ما يَتكلَّمُ من الآدميِّ فَخِذُهُ وكَفُّهُ"(٣)، جاءت هذه النسبة وهذا الترتيب بهذه الصيغة؛ لأن اليد كانت هي المباشرة في أغلب الأعمال، أما الرجل فقد كانت حاضرة، ولهذا عبر في جانبها بالشهادة، وعلى هذا يكون كلام الفاعل المباشر في العمل إقرار، وكلام الحاضر شهادة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾، أي أن اليد هي الأصل في المباشرة.

وثمة لطيفة في تقديم الاعتراف أو الكلام على الشهادة، وذلك لمناسبة الواقع فالعادة جرت بأن تسير الأمور في القضايا على وفق هذا النسق، الاعتراف أولاً، والشهود ثانيًا، وهذا ما بينته الآية الكريمة، وكذلك قُدم؛ لأن دوره في هذه القضية أكثر فعالية وأبلغ دلالة من الشهادة وبخاصة عندما يكون هناك توافق بين ما يدلي به المعترف وما يدلي به الشاهد(٤).

وأسند الختم سبحانه وتعالى إلى نفسه في حين أسند الكلام والشهادة إلى الجوارح؛ "لأنه لو قال تعالى: نختم على أفواههم وتنطق أيديهم يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبرًا وقهرًا، والإقرار بالإجبار غير مقبول، فقال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾، أي باختيارها بعد ما يُقْدِرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم"(٥).

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، تفسير سورة السجدة، حديث رقم (٣٦٤٦) ٤٧٨/٢.

(٢) الفدام: مصفاة الكوز والإبريق ونحوه، وهو ما يوضع في فم الإبريق، وهو شيء تشده العجم على أفواها عند السقي. ينظر: لسان العرب ٤٥٠/١٢ (ف د م).

(٣) المستدرك على الصحيحين، تفسير سورة السجدة، حديث رقم (٣٦٤٥) ٤٧٧/٢.

(٤) تأملات في سورة يس، حسن محمد باجودة، دار النصر، دار الاعتصام، القاهرة، ط٣، ١٣٩٧هـ ـ١٩٦٧م، ص٨٧.

(٥) مفاتيح الغيب ٣٠٢/٢٦.

وهكذا تصور الآية الكريمة هذا المشهد العظيم، بتصوير دقيق، حين يعطل سبحانه بقدرته ذلك اللسان الذي كان سببًا في كفرهم وطغيانهم، وتعطي هذه الصفة للجوارح، فتشهد عليهم "وهكذا يخذل بعضهم بعضًا وتشهد عليهم جوارحهم، وتتفكك شخصيتهم مزقًا وآحادًا يُكذِّب بعضها بعضًا، وتعود كلٌّ جارحة إلى ربها مفردة، ويثوب كلٌّ عضوْ إلى بارئه مستسلمًا، إنه مشهدُ عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب"(١).

الشـــــوي:

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾(٢).

اتفق أصحاب المعجمات على أن النزع معناه القلع، جاء في العين: "نزعت الشيء قلعته أنزعه نزعًا، وانتزعته: أسرع وأخف"(٣)، وإلى المعنى نفسه ذهب الجوهري، بقوله: "نزعت الشيء من مكانه أنزعه نزعًا: قلعته"(٤)، وزاد صاحب المفردات فائدة، فقال: "ويستعمل ذلك في الأعراض"(٥)، وهو لا يكون في المعاني، وإنما يكون فيما يدرك ويحس، قيل (الشوي) الأطراف، وهي اليدان والرجلان، يقال: للرامي إذا لم يصب المقتل: أشوى، أي أصاب الشوى، والشواء أيضًا، جلد الرأس، واحدتها: شواة ... "تنزع النار الهامة والأطراف فلا تترك لحمًا ولا جلدًا إلا أحرقته"(٦)، وقال سعيد بن جبير(٧): "العصب والعقب ولحْم الساقين واليدين"، وقال ثابت البناني(٨): "المكارم وجه بني آدم"(٩). فلأجل إبراز كل كل هذه المعاني كان لفظ (نزاعة) ليدل على عظم هذا العقاب، وما يصيب منه بني

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢٩٧٣/٥.
(٢) المعارج: الآيتان (١٥)، (١٦).
(٣) العين ٣٥٧/١ (ن ز ع).
(٤) الصحاح ١٢٨٩/٣، وينظر: اللسان ٣٤٩/٨ (ن ز ع).
(٥) المفردات للراغب ٧٩٨/١ (ن ز ع).
(٦) مفاتيح الغيب ٧٢٤/١٥، ٧٢٥.
(٧) سعيد بن جبير الأسدي مولاهم الكوفي، ثقة، ثبْت فقيه من الثالثة، وروايته عن عائشة وأبو موسى ونحوهما، مرسلة، قُتل بين يدي الحجاج (دون المائة) سنة خمس وتسعين ولم يكمل الخمسين. (ينظر: تقريب التهذيب ٢٣٤/١).
(٨) ثابت بن أسلم البُناني بضم الموحدة ونونين (مخففين) أبو محمد البصري، ثقة، عابد من الرابعة، مات سنة بضع وعشرين، وله ست وثمانون. (ينظر: تقريب التهذيب ١٣٢/١).
(٩) الكشاف ٦١٠/٤.

آدم، فلا ينفعه حينئذ لا صاحب ولا بنون، فتوافق اللفظ والمعنى، وجاءت الصفة دالة على القلع، فكان اختيار القرآن الكريم للكلمة لما فيها من دلالة تتفق وما يتطلبه السياق، "ولا مانع أن تتجدد هذه الأطراف وتعاد فتنزع مرة أخرى"(١).

الظهـــــر:

(وراء الظهور ــ والحمل على الظهور ــ وأخذ الظهور وكيها).

وقد تكرر في آيات القرآن الكريم تسع مرات في سياقات متعددة، منها قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾(٢).

"الظَّهْر من كُلِّ شيءٍ خِلافُ البَطْن، ومن الإنسان هو من لَدُن مُؤَخَّرِ الكاهِل إلى أدنى العَجُز عند آخِره، مذكُر، وهو من الأسماء التي وضعت موضع الظروف، والجمع أَظْهُرُ وظُهُور وظُهْران، وقيل: هو ست فقراتٍ يكْتَنِفُها المَتْنَان"(٣).

فقد أنكر الكافرون البعث والقيامة، فسيأتيهم عملهم على ظهورهم على هيئة "رجل قبيح الوجه أسود اللون منتن الريح، فإذا بعث يوم القيامة قال له: إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات، وأنت اليوم تحملني فيركب على ظهره ويسوقه حتى يدخله النار(٤). وأخذ الله ذريات بني آدم من ظهورهم، فأخرج من أصلابهم نسلاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾(٥)، ومع انتقال السياق من تأكيد المعنى والعقوبة، يغير النص القرآني صيغه بما يتوافق والسياق كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾(٦)، حيث يلصق الحديد بالعضو حتى يخترق الجلد والجباه والجنوب، والكي في الوجه أشهر وفي الظهر ألم وأوجع، فلذلك خصّها بالذكر من بين سائر الأعضاء(٧)،

---

(١) أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم، ص٢٦٩.
(٢) الأنعام: الآية (٣١)، ووردت في آل عمران: الآية (١٨٧).
(٣) ينظر: لسان العرب ٥٢٠/٤ (ظ هـ ر).
(٤) تفسير القرآن العظيم ٢٥٠/٣.
(٥) الأعراف: من الآية (١٧٢).
(٦) التوبة: من الآية (٣٥).
(٧) تفسير القرآن العظيم ٣٥٢/٢.

"والنبذ وراء الظهر، مثل: في الطرح وترك الاعتداد، ونقيضه جعله نصب عينيه، وألقاه بين عينيه"(١)، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(٤).

"مثل لتركهم وإعراضهم عنه مثل بما يرمي وراء الظهر استغناء عنه وقلة الالتفاف إليه"(٥)، و"النبذ: طرح الشيء مع الاستهانة به، وقوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ﴾، "حقيقته تعرضوا للغفلة عنه، والاستعارة أبلغ لما فيه من الإحالة على ما يتصور"(٦).

فالألفاظ تملك دلالة تتحدد بالسياق الذي ترد فيه، وبالنظر في تركيب الآية، يتضح أنها تنتقي ألفاظها ببراعة ودقة، فهي تستخدم لفظ (نبذ)، ولم تستخدم أيّا من مرادفاته مثل ترك؛ وذلك لأن كلمة نبذ فضلاً عن أنها تدل على الترك، توحي إلى نفس القارئ معنى الإهمال والاحتقار؛ لأن الذي (ينبذ) وراء الظهر إنما هو الحقير المهمل، في اعتقاد من يهمله(٧)، وكذلك لم تستخدم لفظ (طرح)؛ إذ أن الفرق "بين النبذ والطرح "أن النبذ اسم لإلقاء الشيء استهانة به، وإظهاراً للاستغناء عنه"(٨). وإضافة الوراء إلى الظهر، لتأكيد بعد المتروك والمبالغة في

(١) الكشاف ١/٤٥٠.
(٢) البقرة: من الآية (١٠١).
(٣) آل عمران: الآية (١٨٧).
(٤) هود: الآية (٩٢).
(٥) الكشاف ١/١٧١.
(٦) النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرماني (علي بن عيسى، ت٣٨٦هـ)، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٩١.
(٧) التحرير والتنوير ١/١٩٢ (بتصرف).
(٨) الفروق اللغوية ١/٢٩٧.

إبعاده وإهماله؛ وذلك لأن الظهر بمعنى الوراء، وعندما أضيف إليه الوراء أصبح بمعنى وراء الوراء[١].

العضـــــــد:

قال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾[٢].

جاءت الآية في سياق المدّ والعون، على إنفاذ الأمر، والشد: هو الربط في أحد معانيه، أما إذا أطلق هذا الشد على اليد أو إذا أريد معنى شد اليد فإنه يدل على معنى آخر هو تقوية تلك اليد "الشِّدَّةُ: الصَّلابةُ، وهي نقيض اللِّين، وقد شَدَّه يشُدُّه، ويشدُّه شدًا فاشْتَدَّ وشيء شَدِيدُ: بيِّن الشدة، وشيء شديد: مُشْتَدُ قَوِي، وتقول: شَدَّ الله مُلْكَه وشَدَّدَه قَوَّاه"[٣]، "والشد: الرَّبط، وشدّ العامل بعضو إذا أراد أن يعمل به عملاً متعبًا للعضو أن يربط عليه لئلا يتفكك أو يعتريه كسر، وقولهم: فتَّ في عَضُده، وجُعل الأخ هنا بمنزلة الرِّباط الذي يشد به والمراد أنه يؤيده بفصاحته، فتعليقه بالشد ملحقة بباب المجاز العقلي، وهذا كله تمثيل لحال إيضاح حجته بحال تقوية من يريد عملاً عظيمًا أن يشد على يده وهو التأييد الذي شاع في معنى الإعانة والإمداد، وإلا فالتأييد أيضًا مشتق من اليد، فأصل معنى (أيد) جَعَل يدًا، فهو استعارة لإيجاد الإعانة"[٤].

و"العضد قوام اليد، وأصله العُضو الذي هو من المِرفق إلى الكَتِف"[٥]، ويقال: في دعاء الخير شد الله عضدك وفي ضده فتَّ الله عضدك، ومعنى "سنشد عضدك" سنقويك ونعينك، فإما أن يكون ذلك؛ لأن اليد تشتد بشدة العضد، والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور، وإما لأن الرجل شبه باليد في اشتدادها باشتداد العضد فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديد"[٦]. ومن هنا أصبح السياق حاجة حاجة ماسة وضرورة إلى الفهم وضبط عملية التفسير وتحديد المراد من الوصف.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٦/١ (بتصرف).
(٢) القصص: من الآية (٣٥).
(٣) لسان العرب ٢٣٢/٣ (ش د د).
(٤) التحرير والتنوير ١١٧/٢٠.
(٥) العين ٦٨/١ (ع ض د).
(٦) الكشاف ٨٠١/٢٠.

العقـــــب:

قال تعالى: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾(١).

"يقال رجع على عقبه وعلى عقبيه ونكص على عقبيه بمعنى رجع إلى المكان الذي جاء منه؛ لأنه كان جاعلاً إياه وراءه فرجع"(٢).

وورود هذه التراكيب في سياق القرآن الكريم "هو تمثيل لحال المرتد إلى الشرك بعد أن أسلم بحال من خرج في مهمّ فرجع على عقبيه، ولم يقض ما خرج له، وهذا أبلغ في تمثيل سوء الحالة من أن يقال: ونرجع إلى الكفر بعد الإيمان"(٣). ففي هذه الآيات استعير الانقلاب على العقبين عن الارتداد؛ لأن الانقلاب على الأعقاب في الأصل الرجوع القهقري وأريد به الارتداد والرجوع إلى ما كانوا عليه من الكفر في المشهور، والغرض من هذا السياق إنكار ارتدادهم عن الدين بخلوه ﷺ بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكاً به"(٤).

---

(١) البقرة: من الآية (١٤٣)، وبقية المواضع: آل عمران: من الآية (١٤٤)، (١٤٩) والأنعام: من الآية (٧١)، والأنفال: من الآية (٤٨).
(٢) التحرير والتنوير ٣٠٠/٧.
(٣) التحرير والتنوير ٣٠٠/٧.
(٤) روح المعاني، ٢٤٠/٣.

العنـــــــق:

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَـــةِ كِتَابًـــا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾(١).

العُنْق، والعُنُق معروف يخفف ويثقل(٢). وقال الراغب: "العُنق الجارحة"(٣)، وفي اللسان: "وَصْلة ما بين الرأس والجسد"(٤)، وفي المصباح "العنق الرقبة"(٥).

الطائر: "عمل الإنسان الذي قُلِّده خيره وشره، وقيل رزقه، وقيل: شـــقاوته وسعادته، وأصله فيما يقال: التطير بالسوانح والبـــوارح مـــن الظبـــاء والطيـــر وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشرع وأبطله ونهـــى عنـــه، وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع ولا دفع ضرر"(٦).

قال الزَّجَّاج: "هذا في عنق الإنسان أي لزومه كلزوم القلادة له من بين مـــا يلبس في العنق"(٧)، "قال أهل المعاني: وإنما خص العنق من بين سائر الأعضـــاء بهذا المعنى؛ لأن الذي يكون عليه إما أن يكون خيرًا يزينه أو شرًا يشينه، ومـــا يزين يكون كالطوق والحلى، والذي يشين فهو كالغل، فههنا عمله إن كـــان مـــن الخيرات كان زينة له، وإن كان من المعاصي كان كالغل على رقبته"(٨). "وطـــائر كل إنسان ما يُقسم له من العمل، وهو كناية عما يعمله، وإلزامه له فـــي عنقـــه تصوير للزومه إياه وعدم مفارقته، على طريقة القـــرآن فـــي تجســـيم المعـــاني وإبرازها في صورة حسية"(٩)، بل إن هذا التركيب قد يكون حقيقة لا صورة، فالله

---

(١) الإسراء: الآية (١٣).
(٢) العين ١٩١/١ (ع ن ق)، والجمهرة ١٣٢/٣ (ع ن ق).
(٣) المفردات ٥٩٠/١ (ع ن ق).
(٤) اللسان ٢٧١/١٠ (ع ن ق).
(٥) المصباح، ص٤٣٢.
(٦) ينظر: تاج العروس ٤٥٣/١٢، ٤٥٤ (ط ي ر).
(٧) معاني القرآن وإعرابه ٢٣٠/٣.
(٨) مفاتيح الغيب ٣٠٩/٢٠.
(٩) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢٢١٧/٤.

فالله تعالى قادر على "أن يجعل في جسد الإنسان جهازًا يسجل عليه أقواله وأفعاله"(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾(٢).

ففي هذه الآية تشبيه حال الكفار في امتناعهم عن الإيمان بمن جعلت الأغلال في أعناقهم وصاروا رافعي رؤوسهم؛ لأن "طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادرًا من الحلقة إلى الذقن فلا يخليه يطأطئ ويوطئ قذاله(٣) فلا يزال مقحمًا لاسيما إذا كان كان الغل عظيمًا"(٤).

فقد بين الله في سياق هاتين الآيتين حالتين وصفتين؛ لأن "المانع عن النظر في الآيات قسمان: قسم يمنع عن النظر في الأنفس فشبه ذلك بالغل الذي يجعل صاحبه مقمحًا لا يرى نفسه ولا يقع بصره على بدنه، وقسم يمنع عن النظر في الآفاق، فشبه ذلك بالسد المحيط فإن المحاط بالسد لا يقع نظره على الآفاق، فلا يظهر له ما فيها من الآيات فمن ابتلى بهما حرم عن النظر بالكلية"(٥)، فكأن الكفار قد حرموا عن كل وسائل المعرفة بآيات الله تعالى.

العـــــين:

أصل العين في اللغة: "حاسة الرؤية وهي مؤنثة، والجمع أعين وعيون وأعيان وتصغيرها عُيَيْنة"(٦). يقول ابن فارس(٧) في بيانها: "العين والياء والنون والنون أصل واحد صحيح يدل على عضو به يُبْصر ويُنظر ثم يشتق منه..."، ثم

(١) الكتاب والقرآن: دراسة دلالية في السياق القرآني، عودة خليل، دار الرازي، الأردن، ١٩٩٦م، ص٤٨٧.
(٢) يس: من الآية (٨)، والدلالة نفسها في: غافر: من الآية(٧١)، وسبأ: من الآية (٣٣).
(٣) "القذال كسحاب: جماعُ مُؤَّخر الرأس من الإنسان والفرس فوق فأس القفا" ينظر: تاج العروس ٣/٢٤٠ (ق ذ ل).
(٤) روح المعاني ١١/٣٨٧..
(٥) روح المعاني ١١/٣٨٨، ٣٨٩.
(٦) الصحاح ٦/١٧٠ (ع ي ن)، واللسان ١٧/١٧٨ (ع ي ن).
(٧) مقاييس اللغة ٤/١٩٩ (ع ي ن).

انتقلت دلالته نتيجة التوسع اللغوي فأطلق لفظ (العين) على مسميات أخرى حسية ومعنوية. وقد وصفت العين بأمور كانت خاصة بها[١]، ومن هذه الصفات:

طمس العيـــــون:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَـاء لَطَمَسْـنَا عَلَـى أَعْيُـنِهِمْ فَاسْـتَبَقُوا الصِّـرَاطَ فَـأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾[٢].

وفي المعنى اقتراب من المعنى اللغوي، فـ(انطمس) فـي اللغـة بمعنـى: "اَمّحي، ودَرَس، طَموسُ البصر، أي: ذهابُ نُـورِه وضَـوْئِهِ، وكـذلك طُمُـوس الكواكب: ذَهَابُ ضَوْئها"[٣]، فتأويل طمس الشيء: ذهابه عن صورته.

لكلمة (طمس) في هذه الآية ميزة جمالية عالية لما تتركه من أثر نفسي، إذ تدور دلالتها في السياق على العذاب والترهيب، ففي الآية دلت كلمة (طمس) على ذهاب البصر وزوال نظره، وقد دلّ استعمال (الطمس) هنا على بشاعة المنظـر، فلا يمكن تخيل الوجوه من دون أعين إذ يوحي المعنى بانمحاء معـالم العيـون، حتى كأن لم يكن لها من قبل في هذا الوجه وجود[٤].

"وهذا يعني أن معيني الانفعالية الأساسـيين همـا: المفـردات والتنظـيم، وعنصر الاختيار هو ما يميز اللغة الانفعاليـة مـن غيرهـا، إذ تظـل مراعيـة لمقتضيات الحدث اللغوي، من خلال تحولاتها السياقية بحسب تحـولات المقـام، فتصوغ عباراتها صوغًا جماليًا، فلا يكون المعنى تبعًا لذلك بمعزل عـن عناصـر السياق كلها، فإن إنتاجه يتشكل بشكل العملية اللغوية، التي لا تنفك تقـوم علـى ثنائية الدال والمدلول"[٥].

فيض العيـــــون:

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن ٥٩٩/١.
(٢) يس: الآية (٦٦)، والدلالة نفسها في القمر: من الآية (٢٧).
(٣) ينظر: لسان العرب ١٢٦/٦ (ط م س).
(٤) ينظر: معاني القرآن، للفرّاء ٣١١/٣، ومعاني القرآن وإعرابه، للزّجّاج ٢٩٣/٤.
(٥) ينظر: أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث من خلال بعض نماذجه، توفيق الزيدي، الدار العربية للكتاب، طرابلس، (د.ت)، ص١٤٢.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[١].

انتقلت (تفيض) من دلالتها الوضعية الدائرة في فلك السيل بتدفق وانصباب[٢] إلى دلالة سياقية، فقد أطلقت ليراد بها الامتلاء، والعلاقة بينهما هي السببية، فالفيضان سبب للامتلاء. فحق (تفيض) أن تسند إلى (الدمع) فاعلها الحقيقي: أي تفيض دمع عيونهم، غير أنها أسندت إلى الأعين تجوزًا وخرقًا لما هو مألوفٌ، لنتصور بذلك شدة الأسى والحزن اللذين هيمنا على نفسية من حُرم من مشاركة الجهاد، حتى أن الأعين التي تربطها بالدمع علاقة الكل بالجزء والمحل بالحال قد "جعلت كأنها كلها دمع فائض"[٣]، أي تحولت إلى دمع فياض، لا تتوقف عن السيلان والانهمار، وثُمة إجراء أسلوبي آخر أسهم في منح التراكيب اللغوية بإشراقات وقيم دلالية هو (إسناد الحزن إلى العين)[٤]، فتوافق اللفظ والمعنى، وامتلكت كلمة (تفيض) بدلالة تحددت بالسياق.

استقـــرار العين:

قال تعالى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[٥].

ورد الأصل (قرر) وما يشتق منه في القرآن الكريم، وجاء في آيات أعضاء خلق الإنسان كصفة تدل على التمكن والثبات يحدد السياق معناها، يقول الأصفهاني: "قِّر في مكانه يقرّ قرارًا إذا ثبت ثبوتًا جامدًا وأصله من القرّ وهو البرد وهو يقتضي السكون"[٦]، فالملاحظ في سياق هذه الآية إسناد هذا الأصل (قر) إلى المكان أو ما يدل على المكانية، فقد أسند الفعل المضارع إلى المكان وهو العين، فالطمأنينة راحة وسكون ورضا داخلي بحيث يظهر آثاره على ملامح

---

(١) المائدة: الآية (٨٣)، والدلالة نفسها في التوبة: من الآية (٩٢).
(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن ٦٤٨/١ (فيض).
(٣) حاشية الشهاب المسماة: عناية وكفاية الراضي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي على تفسير البيضاوي، أبو سعيد ناصر الدين عبدالله بن عمر، ضبط وتخريج الآيات: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م ٦٢٠/٤.
(٤) التحرير والتنوير ١٨٠/١٠.
(٥) طه: من الآية (٤٠)، واللفظ في القصص: الآيات (٩)، (١٣).
(٦) المفردات ٦٦٢/١ (ق ر ر).

الشخص ونشاطه، والعين من أهم الأعضاء التي تعكس العمق الداخلي النفسي للفرد، فقد استقر حال أم موسى عند رؤية ولدها.

مَدُّ العين:

قال تعالى:﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(١).

"المدُّ" في اللغة يعني: الجذب والمَطْل، مَدَّهُ يَمُدُّه مَدًّا، ومَدَّ به فامتَدَّ ... ومَدَّه في الغي والضلال يَمُدُّه مَدًّا ومَدَّ له: أملى له وتركه"(٢).

إنَّ (مَدَّ العين) يعني: النظر إلى الأشخاص الذين غمرهم نعيم الدنيا، وكان من الممكن أن يقول النَّص مثلاً: (لا تنظر إلى ما متَّعنا به أزواجًا منهم)، لاحتمل السياق معنى آخر، ولكنّه قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، إذ إنّ مجَّردَ النَّظر إلى ما فيه الآخرون من النعيم لا يحمل إلا دلالة عادية على نظر معهود لا يستتبع حسرة أو تطلعًا أو تفكيرًا في الشيء، على العكس ما قيل (لا تمدن عينيك)؛ لأن (المَدَّ) يعني تركيز النظر وإطالته، ويعني إيجاد حلقة موصلة بين طرفين: طَرف الناظر، وطرف المنظور إليه، ممَّا يحمل دلالة خاصَّة هي أنَّ النَّاظر سيقترن نظرُه إلى الآخرين بالحسد أو بالتطلُّع، أو بتمني لهذه الاستعارة التي يمكن أن يستخلص المتلِّقي منها ما يأتي: أن على المؤمنين ألا يُعْنَوا بالنعيم الدنيوي الذي يستمتع به المنحرفون عن منهج الله تعالى، إذ إنَّ هذا النعيم سيكون وبالاً عليهم، فضلاً عن كونه نعيمًا زائلاً لا بقاء له(٣)، ثم يأتي دور السياق في تحديد دلالة صفة أخرى للعين، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(٤).

الخائنة مصدر الخيانة كالعافية والكاذبة، أي يعلم خيانة الأعين(٥)، أي النظر(١). وذكر ابن كثير ــ يرحمه الله ــ ما مختصره: "يخبر الله ــ عز وجل ــ

---

(١) طه: الآية (١٣١).
(٢) لسان العرب ٣/٣٩٦، ٣٩٧ (م د د).
(٣) ينظر: دراسات فنية في سور القرآن الكريم، ص٢٤٥.
(٤) غافر: الآية (١٩).
(٥) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، لسيمان العجيلي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٢٠٤هـ، ٤/١٠٠٩.

عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حق الحياء، ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر"(٢). "في الآية فريدة سهلة إذا أفردت يستعملها الناس، ولكن في تركيبها القرآني وبعد إضافتها إلى (الأعين) حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها في النفوس هذا الوقع بحيث لا يستطاع الإتيان بمثلها، ولا يكاد يقع ذو فكر سليم وذهن مستقيم على شبهها"(٣)، نتيجة لذلك ينبغي أن ترتبط وحدات النص في سياقها، ويتعين في النص أن يتم شكله ومحتواه بالتماسك والوثاقة، لتبرز قيمة السياق في تحديد دلالة اللفظ.

الفَـــــــرْج:

قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾(٤).

"الفَرْج والفُرْجة: الشّقّ بين الشيئين كفرجة الحائط، والفَرْجُ: ما بين الرّجلين، وكُنِّي به عن السّوأة وكثر حتى صار كالصّريح فيه"(٥). ولقد اشتهر القرآن الكريم بكناياته البديعية، وبخاصة عند التعبير عما لا يستحب التصريح به، فهو: "كناية عن فرج القميص، أي لم تعْلَقْ ثوبها ريبة، فهي طاهرة الأثواب"(٦)، وقد يتم الانتقال في اللفظ من المجاز إلى مجاز آخر وهو ما سماه الزمخشري في معجمه أساس البلاغة (بمجاز المجاز)، ومن ذلك كلمة (فروج) التي جاءت بمعناها الحقيقي وهو جمع (فَرْج) للشّقّ في البناء أو بين الشيئين(٧)، كما في

---

(١) ذكر في حديث شريف معنى آخر لخيانة العين وهو الغمز كما جاء في قول رسول الله ﷺ : "إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين أي أن يومئ بعينه ليعبر عن شيء في نفسه لا يريد الإفصاح عنه"، رواه أبو داود ــ والنسائي.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٢٤/٧.

(٣) إعجاز القرآن البياني، ص٢٢٩.

(٤) الأنبياء: من الآية (٩١)، والمعنى نفسه في: التحريم: من الآية (١٢).

(٥) أساس البلاغة ١٣/٢.

(٦) البرهان في علوم القرآن ٣٠٥/٣.

(٧) المفردات ٦٢٨/١.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾(١)، وبمعنى عضو الأنوثة عند المرأة بعلاقة المشابهة، ثم بمعنى عضو الذكورة عند الرجل كذلك بعد توسيع المعنى ليشمل العورة الغليظة سواء كانت للمرأة، أو للرجل. وقد تمثل هذا في قوله تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾(٢)، فاللفظ بالنسبة للمرأة استعارة، وبالنسبة للرجل من باب تعميم المعنى أو توسيعه، فالسياق هو صاحب السلطة في تحديد دلالة الألفاظ ومعانيها المقصودة.

الفـــــم:

"أفواهُ جمع فَمٍ وأصل فم فَوَهٌ"(٣)، وجاء الفم في ثلاثة عشر موضعًا في القرآن الكريم في سياقات متعددة، كبيان بُغض الكفار وعدائهم للمسلمين في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾(٤).

ومن المعلوم أن القول لا يكون إلا بالفم، فما الحاجة إذن إلى ذكر بـ(أفواههم) بعد الفعل (يقولون) الدال على الكلام؟. قيل في ذلك أنه: "ذكر الأفواه للتأكيد والتقابل بينها وبين القلوب"(٥)، وفضلاً عن ذلك يعرض القرآن الكريم في هذه الآية ما كان من المنافقين حينما دعاهم المؤمنون للقتال فأعرضوا وهم يقولون: "لو نعلم قتالاً لاتبعناكم"، أي لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لأتبعناكم فيه، ولكن ما أنتم عليه ليس بقتال، بل إلقاء بالأنفس إلى التهلكة، فهم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان، إذ كان انخذالهم ومقالهم تقوية للمشركين وتخذيلاً للمؤمنين، والله أعلم بما يخفون في نفوسهم"(٦)، فكان تعبير القرآن عن هذه النزعة بوصفها باستخدام أعضاء الجسم المسئولة عنها باعتبار الفم الآلة المستخدمة للنطق، وكان الباطن باستخدام القلب. قال الزمخشري: "وذكر الأفواه

---

(١) ق: من الآية (٦).
(٢) الأحزاب: من الآية (٣٥)، والدلالة نفسها في: المؤمنين: من الآية (٥)، النور: من الآية (٣٠).
(٣) المفردات في غريب القرآن ١/٦٥٠ (فوه).
(٤) آل عمران: من الآية (١٦٧)، ويماثل ذلك في الآيات: التوبة: من الآية (٣٠)، الأحزاب: من الآية (٤)، النور: من الآية (٥)، المائدة: من الآية (٤١)، التوبة: من الآية (٨)، الكهف: من الآية (٥).
(٥) الميزان في تفسير القرآن ٤/٦١.
(٦) أنوار التنزيل ٢/١٢٨.

مع القلوب تصوير لنفاقهم، وأن إيمانهم موجود في أفواههم فقط معلوم في قلوبهم"(١).

وفضلاً عن ذلك يمكن القول أنه لو ورد السياق على الشكل (يقولون ما ليس بقلوبهم) لاحتمل المعنى أنهم يكذبون وكذبهم ظاهر مفضوح، لكن لما ذكر كلمة (أفواه) احتمل السياق معنى آخر غير الأول، وهو أن هؤلاء منافقون فهم يعتقدون شيئًا ويظهرون شيئًا آخر، وفي ذلك إشعار بالذم لهؤلاء، كما أن بذكر الأفواه يحصل تطابق في اللفظ مع (الذين نافقوا) ومع (الله أعلم بما يكتمون) فعلم أنهم "يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم"، هو علمه بما يكتمون وبذلك يتضافر السياق ويصبح كله كلمة واحدة بعضه يؤكد بعضًا فضلاً عن إظهار صفة النفاق التي يمكن استنتاجها من هذا السياق، وتأكيدًا لذلك قيل: "ذكر الأفواه للتأكيد وللتقابل بينها وبين القلوب"(٢)، ويكون قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، جملة مستأنفة مقررة لمضمون ما تقدمها، أي أنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وذكر الأفواه للتأكيد(٣).

القدم:

قال تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾(٤).

القدم: قدم الرّجل وجمعه أقدام"(٥).

الثبات في اللغة ضد الزوال، يقال: يثبت الشيء ثباتًا وثبوتًا، وأثْبَتَه غيره وثَبتَّه غيره وثَبْتهُ، بمعنى واحد. والثَّبت والتَّثبيت: هو الفارس الذي لا يُصرعَ، ولم يزل في خصام أو قتال(٦)، ومن الدلالات الحسية لجذر(ث ب ت) "الثِّباتُ وهو سير يُشَدُّ به الرَّحْلُ والمُثْبتُ هو الرَّحْلُ المَشْدود به"(٧)، ويستشف من هذه الدلالات

(١) الكشاف ٤٣٧/١.
(٢) الميزان في تفسير القرآن ٦١/٤.
(٣) فتح القدير ٣٩٧/١.
(٤) الأنفال: من الآية (١١)، والبقرة: من الآية (٢٥٠).
(٥) المفردات في غريب القرآن ٦٦١/١ (قدم).
(٦) الصحاح ٢٤٥/١ (ث ب ت).
(٧) القاموس المحيط ١٤٩/١ (ث ب ت).

الدلالات معنى القوة[١]، وهذا المعنى يلمح في سياق استعمال القرآن الكريم لهذه المادة، تثبيت الأقدام "مترتب على قوة القلوب"[٢] في جهاد العدو، ولا يتم ذلك إلا حينما يكون الثبات على الدين، وعلى هذا "يكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب"[٣].

وعبر الله تعالى عن الرسوخ في الدين بثبوت القدم وعن الانحراف عن الحق بزلل القدم، ولثبوت القدم وتزلزلها أثر عظيم في انقلاب الأحوال، وذكرت القدم مفردة في هذه الآية وهي منكرة بالتنوين، ففيه إشارة إلى أن ذلل قدم واحدة أي قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم فكيف إذا زلت أقدام كثيرة[٤]، يتعلق بسياق النص في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾[٥].

فإن نزول الماء له فائدة مادية ومعنوية فهما "عنصران نفسيان؛ لأنهما يقترنان بالطمأنينة والثقة النفسيتين، ولاسيما أن المسلمين كانوا في مجال الحرب، وهم بأشد الحاجة إلى ما يثبتهم، ويقوي معنوياتهم، بعد أن عدموا الماء لنزولهم في كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام"[٦].

اللسان:

جارحة الكلام وعضو البيان والإفصاح اللفظي في جسم الإنسان، وهو عضلة تمتد من أقصى تجويف الفم إلى مقدِّمه، يستعمله الإنسان في الكلام وبلع الطعام وتذوقه، والجمع ألسنة، وألسن[٧].

جاء اللسان في القرآن الكريم موصوفًا بصفات وأحوال متعددة، ويُعد السياق حصيلة لهذه الصفات، وبالتالي يتكامل النص والسياق فيما بينهما؛ لتظهر

---

(١) المفردات ١/١٧١ (ث ب ت).
(٢) زاد المسير ١/٢٢٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧/٣٧٥ (بتصرف).
(٤) المصدر السابق، والصفحة نفسها.
(٥) الأنفال: الآية (١١).
(٦) الطبيعة في القرآن الكريم، كاصد ياسر الزيدي، بغداد، ١٩٨٠م، ص٧٧.
(٧) لسان العرب ١٣/٢١٢ (ل س ن).

قيمة السياق في تحديد دلالات الصفات لعضو اللسان متأثرة بالمقام والمقال، ومنها:

بسط اللسان:

قال تعالى:﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾(١).

"بَسْطُ الشيء: نشْرُه وتوسّيعه، فتارة يتصوّر منه الأمران، وتارة يتصور منه أحدهما، وبَسْطُ الكف يستعمل تارة للطلب، وتارة للأخذ، وتارة للصولة والضرب"(٢). "والمراد به هنا: عمل اليد الذي يضر مثل الضرب والتقييد والطعن، وعمل اللسان الذي يؤذي مثل الشتم والتهكم ودل على ذلك قوله ﴿بِالسُّوءِ﴾، فهو متعلق بـ﴿يَبْسُطُوا﴾، الذي مفعوله ﴿أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم﴾"(٣).

"وهذه استعارة؛ لأن بسط الألسن على الحقيقة لا يتأتي كما يتأتي بسط الأيدي، وإنما المراد إظهار الكلام السيئ فيفهم بعد زم الألسن عنهم فيكون الكلام كالشيء الذي بُسط بعد انطوائه، وأُظهر بعد خفائه، وقد يجوز أيضًا أن يكون تعالى إنما حمل بسط الألسن على بسط الأيدي ليتوافق الكلام ويتزاوج النظام؛ لأن الأيدي والألسن مشتركة في المعنى المشار إليه، فللأيدي الأفعال، وللألسن الأقوال، وتلك ضررها بالإيقاع وهذه ضررها بالسماع"(٤).

فلفظ (بسط) امتلك دلالة ضمنية تحددت بالسياق، فقد دل الفعل (بسط) عند نسبته إلى الألسن على إظهار ما خفي من الكلام وما طويَّ منه.

تحريك اللسان:

قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾(٥).

"هذه الآية فيها تعليم من الله عز وجل لرسوله في كيفية تلقيه الوحي من المَلَك، فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق المَلَك في قراءته، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك أن يستمع له، وتكفل أن يجمعه في صدره، فلا تحرِّك لسانك يا محمد

---

(١) الممتحنة: من الآية (٢).
(٢) المفردات ١/١٢٣ (ب س ط).
(٣) التحرير والتنوير ٢٨/١٤٠.
(٤) تلخيص البيان، ص٢٤٥، ٢٤٦.
(٥) القيامة: من الآية (١٦).

بالقرآن من قبل أن يُقضي إليك وحيه"(١)، إذن السياق في الآية سياق تنبيه وتعليم، فتوافق الحال واللفظ.

شهادة الألسنة:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢). وهو وعيد للكافرين الذين يرمون المحصنات الغافلات بالعذاب العظيم في الآخرة، "وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتواْ"(٣)، كناية عن صفة الاعتراف بالعمل بغير اختيار، أي أنهم "بما كانوا يعملون يعترفون بها بإنطاق الله تعالى إياها بغير اختيارهم، أو بظهور آثاره عليها، وفي ذلك مزيد تهويل للعذاب"(٤).

الناصيـــــــة:

"الناصية: هي من مَنْبُت الشَّعر في مقَدِم الرأس، وسُمِّي الشعر ناصية لنَباتِه من ذلك الموضع"(٥)، وردت الناصية في القرآن الكريم في أربعة مواضع، وجُلّها في سياق الأخذ لنواصي، ربطت الأولى بين الناصية والتحكم في اتخاذ القرار في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾(٦). إذا رجعنا إلى المعجمات اللغوية نجد أن للسفع أصلين في اللغة: أحدُهُما: لونٌ من الألوان، والآخرُ: تناولُ شيءٍ باليد، ويقال سَفَعَ الطائرُ: ضَرِيبتهُ: أي لَطَمَه، وسَفَعتُ رأسَ فلانٍ بالعصا، هذا محمول على الأخذِ باليدِ(٧).

وفي معنى الآية يقول الزمخشري: "﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾: لنأخذن بناصيته، ولنسحبنه بها إلى النار، والسَّفع: القبض على الشيء وجذبه بشده"(٨).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/٤٥٠.
(٢) النور: الآية (٢٤).
(٣) الكشاف ٣/٢٢٣.
(٤) أنوار التنزيل ٤/١٠٣.
(٥) تاج العروس ٤٠/٩٠ــ٩٣ (ن ص و).
(٦) العلق: الآية (١٥).
(٧) مقاييس اللغة ٣/٨٣، ٨٤ (س ف ع).
(٨) الكشاف ٤/٧٧٨، وينظر: مختصر تفسير البغوي، عبدالله بن أحمد بن علي الزيد، دار السلام، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ ، ٦/١٠٢٦، تفسير القرآن، السمعاني، تحقيق: ياسر بن

ووصفت الآية الثانية ذات الناصية بالكذب والخطأ في قوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾(١)، ووصفتها آية أخرى بأنها مكان القيادة في المخلوق الحي وبها جماع أمره كله، قال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢).

والرابعة تؤكد أن الله تعالى سوف يأخذ نواصي المجرمين ويقودها إلى جهنم والعياذ بالله، يعرفهم الناس من جبهتهم في قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾، ولا شك أن السياق هنا يشعر بالمعنى، كما أن الموقف ساعد في فهم أو تعزيز مفهوم السياق.

اللهم إنا نعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، إن ربي على صراط مستقيم.

الوجـــــه:

وجه الإنسان وغيره معروف(٣)، وأصل الوجه الجارحة، ولما كان الوجه أوّل ما يستقبلك وأشرف ما في ظاهر البدن استعمل في وجه مستقبل كلّ شيء وفي أشرفه ومبدئه"(٤)، وقد ذُكر الوجه في القرآن الكريم في سياقات مختلفة، وسوف أعرض هذه الصفات فيما يأتي:

إبراهيم، وغنيم بن عباس غنيم، دار الوطن، الرياض، ١٤١٨هـ ــ١٩٩٧م، ٢٥٨/٦، وجامع البيان ٥٢٥/٢٤.

(١) العلق: الآية (١٦).

(٢) هود: الآية (٥٦).

(٣) الجمهرة ١١٨/٢.

(٤) المفردات ٨٥٥/١ (و ج هـ).

الوجوه وصفاتها:

أ) الوجـــــــوه المنعمة:

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾(١).

سياق الآية الكريمة يصف وجوه المؤمنين بهذه الصفات الثلاث، لتظهر الأثر الكبير للنعيم، فهي مسفرة من "أسفرَ الصُّبْحُ إسفارًا أضَاءَ، وأسفَر الوَجْهُ من ذلك، إذ علاَه جَمَالُ"(٢)، فهي وجوه "متهللة فرحًا وعليها أثر النعيم"(٣)، فضلا عن أنها ضاحكة؛ بسبب السرور الذي أصابها، ولانعدام الحزن في أنفسهم، أما استبشار وجوههم فإنه علامة أخرى من علامات فرحهم بمشاهدة ما كانت ترجوه نفوسهم من خير.

وتضيف سورة الغاشية صفات أخرى وأحوال إلى وجوه المؤمنين، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾(٤)، فهي وجوه منعمة ظهرت ملامح الرضا عليها.

وتطالعنا سورة يونس بصيغة أخرى لوصف الوجوه المنعمة، تختلف عن الصيغ التي تقدم الكلام عليها، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٥).

فهي آيات تنفي بوساطة (لا) النافية أن يرهق وجوههم الصفات السلبية ومنها القتر والذلة، والرهق من "رهقه الأمر غشيه بقهر"(٦)، والقتر هو "الدخان الساطع من الشواء والعود ... وذلك شبه دخان يغشى الوجه من الكذب"(٧)، فهي وجوه بيضاء مؤمنة ليست ذليلة أو مصابة بالهوان والقهر والانكسار، "وهذه كناية عن نضارة الوجوه وحسنها وخلوها عما إذا حصل غيّر صفحة الوجه"(٨).

---

(١) عبس: الآيات (٣٨)، (٣٩).
(٢) المصباح المنير ٢٧٨/١ (س ف ر).
(٣) التحرير والتنوير ١٣٧/٣٠.
(٤) الغاشية: الآيات (٨)، (٩).
(٥) يونس: الآية (٢٦)، والدلالة نفسها في محمد: من الآية (٢٧).
(٦) المفردات في غريب القرآن ٣٦٧/١ (ر هـ ق).
(٧) المصدر السابق ٦٥٥/١ (ق ت ر).
(٨) مفاتيح الغيب ٣٤/٨.

كما يطلق الوجه على التوجه[١]، وبه فسر قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢]. دلالة الفعل (أسلم) تعني الانقياد لأوامر الله سبحانه وتعالى، وتسليم النفس والذات له. يقول ابن فارس: "السين واللام والميم معظم بابه من الصحة والعافية، ويكون فيه ما يشذ، والشاذ عنه قليل، فالسلامة: أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى ... ومن الباب أيضًا الإسلام ..."[٣].

ب) الوجوه المعذبة:

قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾[٤].

"الغَبَرة وهو: "ما يعلق بالشيء من الغُبار وما كان على لونه، ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ كناية عن تغير الوجه للغم"[٥]، قال الآلوسي: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾، أي غبار وكدرة، ترهقها أي تعلوها وتغشاها قترة، أي سواد وظلمة ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه"[٦].

ويقول تعالى في سورة المؤمنون: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾[٧]، فالكلوح: هو اشتداد عبوس الوجه وتكشيره بسبب الخوف والفزع والقلق وشدة الأهوال التي تقع عليه، وهو (تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو الأسنان"[٨] "تلفح وجوههم النار"، أي تضرب وجوههم وتأكل جلودهم ولحومهم ... وهم فيها كالحون، والكلوح تَقَلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو الأسنان،

---

(١) تاج العروس ١١٤/١٩ (و ج ه).
(٢) البقرة: من الآية (١١٢)، والدلالة نفسها في: البقرة: من الآية (١٤٤)، وآل عمران: من الآية الآية (٢٠)، والأنعام: من الآية (٧٩).
(٣) مقاييس اللغة ٩٠/٣ (س ل م).
(٤) عبس: الآيات (٤٠ــ٤٢).
(٥) المفردات في غريب القرآن ٦٠١/١ (غ ب ر).
(٦) روح المعاني ٢٥٢/١٥.
(٧) المؤمنون: الآية (١٠٤)، والدلالة نفسها في: الأحزاب: من الآية (٦٦).
(٨) ينظر: مختار القاموس، ص٥٣٥ (ك ل ح).

كما تَرَى الرؤوس المشوية، وعن النبي ﷺ أنه قال: "تَشْوِيهِ النَّارُ فَتَقَلَّصُ شَفَتُهُ العُلْيَا حتَّى تَبلُغَ وَسَطَ رأسِهِ، وتَسْتَرخِي شَفَتُهُ السُّفْلَى حتى تَضْرِبَ سُرَّتَهُ"(١).

ويقول تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾(٢).

"البسر: الاستعجال بالشيء قبل أوانه ... "وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾(٣)، أي أظهر العبوس قبل أوانه وفي غير وقته، فإن قيل: فقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾، ليس يفعلون ذلك قبل الوقت وقد قلت: إن ذلك يقال فيما كان قبل الوقت، قيل: إن ذلك إشارة إلى حالهم قبل الانتهاء بهم إلى النار فخُص لفظ البسر؛ تنبيهًا أن ذلك مع ما ينالهم من بُعد يجري مجرى التكلف ومجرى ما يُفعل قبل وقته"(٤)، وبهذا فإن كلمة (باسرة) مع السياق تحمل معنى الحزن والغم وآثار القلق والتعب النفسي، وتظهر في سورة الغاشية ثلاث علامات للوجوه المعذبة، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾(٥)، فمن صفات هذه الوجوه أنها خاشعة ذليلة "فأصحابها يشاهدون الويلات والشدائد والأهوال، ويكونون خاضعين لما يراد بهم، أذلة لما يغشاهم"(٦). وقد ظهر هذا الانكسار في وجوههم، ومن صفاتها وأحوالها أيضًا أنها عاملة من العمل، مناصبة من النصب، أي التعب، وقد أشارت هاتان الصفتان إلى مجموعة دلالات ومعان: "أحدها: إنَّ المعنى عاملة في النار ناصبة فيها عن الحسن(٧). وقتادة(٨) قال: لم يعمل لله سبحانه في الدنيا فأعملها وأنصبها في النار بمعالجة السلاسل والأغلال ... وثانيها: أن المراد

(١) التبيان في تفسير القرآن ٣٩٧/٧، وينظر: سنن الترمذي، باب (ما جاء في صفة طعام أهل النار) ٧٠٨/٤.
(٢) القيامة: الآية (٢٤).
(٣) المدثر: الآية (٢٢).
(٤) المفردات ١٢٢/١ (ب س ر).
(٥) الغاشية: الآيتان (٢)، (٣).
(٦) الجديد في تفسير القرآن، محمد السيزواري النجفي، دار التعاون للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤٠٢هـ، ٣٥٧/٧.
(٧) الحسن بن أبي الحسن البصري، ثقة، فقيه، فاضل، مشهور، هو رأس أهل الطبقة الثالثة، مات سنة عشر ومائة، وقد قارب التسعين. (ينظر: تقريب التهذيب ١٦٠/١).
(٨) قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي أبو الخطاب البصري، ثقة، ثبت، يقال ولد أكمه، وهو رأس الطبقة الرابعة، مات سنة بضع عشر. (ينظر: تقريب التهذيب ٤٥٣/١).

عاملة في الدنيا بالمعاصي، ناصبة في النار يوم القيامة، عن عكرمة[١] والسدي[٢]، وثالثها: عاملة ناصبة في الدنيا يعملون وينصبون ويتعبون على خلاف ما أمرهم الله تعالى به"[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا﴾[٤].

الشوي: "شوى اللحم شيًا فانشوى، شوَّى القوم وأشواهم أعطاهم لحمًا طريًا يشتوون منه"[٥]، والمعنى "ينضج الوجوه إذا قدم ليشرب من فرط حرارته حتى أنه يسقط جلودها"[٦].

تجهم الوجوه:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾[٧].

فالمنكر مشَّخصً في وجوههم، فهم من شدة كفرهم وعداواتهم للمؤمنين أصبح المنكر ملاحظًا، ومرئيًا وبارزًا للعيان في وجوههم، "تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر: الفظيع من التجهم والبسور أو الشر الذي يقصدونه بظهور مخايله من الأوضاع والهيئات"[٨]، ومقتضى الظاهر أن يقال: تعرف في وجوههم، ولكن جاء الإظهار ليبين باعث الإنكار، كما أن هذا الإظهار شهادة عليهم بالكفر،

---

(١) عكرمة أبو عبد الله مولي ابن عباس، أصله بربري، ثقة، ثبت، عالم بالتفسير، لم يثبت تكذيبه عن ابن عمر، ولا تثبت عنه بدعة من الثالثة، مات سنة أربع ومائة، وقيل بعد ذلك. (ينظر: تقريب التهذيب ٣٩٧/١).

(٢) إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السُدِّيُّ بضم المهملة وتشديد الدال أبو محمد الكوفي الكوفي صدوق، يهم، ورمي بالتشييع من الرابعة، مات سنة سبع وعشرين. (ينظر: تقريب التهذيب ١٠٨/١).

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن ٤٧٦/٥.

(٤) الكهف: من الآية (٢٩).

(٥) لسان العرب ٤٤٦/١٤ (ش و ي).

(٦) روح المعاني ٢٥٥/٨.

(٧) الحج: من الآية (٧٢)، وينطبق ذلك على آيات: الملك: من الآية (٢٧)، والإسراء: من الآية (٧).

(٨) إرشاد العقل السليم ١٢٠/٦.

ووصمهم به[١]، وتبين من سياق الآية، أن الألفاظ تمتلك دلالة ضمنية تتحدد بالسياق الذي ترد فيه.

كما تأتي الوجوه في سياق الآيات لتصوير العذاب في صورة شاخصة ترى بالعين ترهيبًا من الكفر وتقبيحًا له للتأثير في نفس المخاطب، وتحذيرًا له من هذا المصير السيئ من مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾[٣].

نسأل الله تعالى التخلي عن الصفات القبيحة الرذيلة، والتحلي بالملكات الحسنة الجميلة.

طمس الوجـــوه:

من الصور المؤثرة في النفس البشرية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً﴾[٤].

استعمال كلمة (طمس) في الآية رمز وإشارة إلى معنى العذاب والترهيب بطمس صورة الشيء واستبدالها بصورة مفزعة، فلكل لفظ في القرآن الكريم دلالة نفسية معينة طالما أن الإعجاز القرآني هو إعجاز للنفس البشرية أمام اختيار الله سبحانه للكلمات ونظمها في سياقات مختلفة، لتكون أقدر دون غيرها، على التعبير عن المعنى وتصويره وتلوينه في إبداع فني.

قال (وجوهًا) ولم يقل (وجوهكم) مع أن المخاطبين هم أهل الكتاب مستميلاً بذلك قلوب المخاطبين في لطف وحسن استدعاء إلى الإيمان بما نزل على محمد ﷺ بطمأنينة؛ لذا يشير أبو السعود: إلى أن الآية أدعى إلى الاستجابة من التصريح "وفي إبهامها ــ الوجوه ــ لطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم إلى الإيمان"، ثم

---

(١) التصوير البياني في حديث القرآن عن القرآن (دراسة تحليلية)، عبد العزيز بن صالح العمار، دبي، الإمارات، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٠٦.
(٢) الزمر: الآية (٢٤).
(٣) القمر: الآية (٤٨).
(٤) النساء: الآية (٤٧).

لينظر من جانب آخر إلى الإطلاق المتحصل من تنكير (وجوهًا) "المقيد للتكثير تهويل للخطب"(١)، فهي وجوه كثيرة ليست قليلة، قد تلم جميع المخاطبين في الآية، فلينظر إلى جمالية التعبير القرآني إذ جمع في بنية لفظة واحدة (وجوهًا) بين الترغيب والترهيب، وقد بَيَّن مسار السياق الحالي أن للآية سبب نزول. قال المفسرون: روي أن هناك من أسلم عندما سمع هذه الآية وقال: "يا رب أسلمت" مخافة أن تصيبه هذه الآية(٢)، وقيل في طمس الوجوه الكثير، "قال بعضهم معناه هو ردها إلى الأدبار، وجعل أبصارهم من ورائهم، ويحتمل أن يكون المراد: طمسها أن تعمى، ومن قائل: نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقري، وقيل: ترد على أدبارهم"(٣)، فصار السياق في هذا منتجًا مستقلاً للدلالة، دون أن تكون الألفاظ أو طبيعة التركيب الوصفي مساعدة له، وفي سياق النص يتبين وجه الصواب من أقوال المفسرين، وذلك حين يكون السياق مبينًا عدم صحة قوله، ومبينًا صواب غيره.

الانقلاب على الوجه:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾(٤).

ورود هذا التركيب في القرآن الكريم تمثيلاً لحال ضعيف الإيمان الذي لا يرجو بإيمانه سوى الغنائم الدنيوية، فهو عند مواجهة المحن يعود إلى الشرك والضلال "والممثل به من يدخل مع قوم دخول طالب المغنم فقط، فهو يجلس على طرف منازلهم، وفي أواخر مواقعهم قلقًا مستوفرًا مستعدًا للهرب، فإن وجد معهم مغنمًا استقر في موقعه واطمأن وأصاب من المغنم، وإن وجد أن مصيبة يمكن أن تنزل بهم فيصيبه منها شيء، أو لاحت له مغانم عند أعدائهم تركهم وانقلب عليهم. ولكن الصورة لابد أن تكون أدق من هذه الصورة، إن المرتد عن عبادة

(١) إرشاد العقل السليم ١٨٥/٢، وينظر: روح المعاني ٤٨/٣.
(٢) ينظر: الدر المنثور ٥٥٦/٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣٢٤/٢.
(٤) الحج: الآية (١١).

الله منتكس على وجهه، وساقط إلى منحدر، فهو كمن ينقلب على وجهه بعد أن يترك القوم الذين دخل في طرف مرافعهم طمعًا بالمغانم لديهم"(١).

وبالنظر في السياق القرآني (انقلب على وجهه)، نجده جوابًا للشرط (إن أصابته فتنة) مما يدل أن الإصابة بالفتنة شرط لحدوث الردة والرجوع عن الحق.

الانكباب على الوجه:

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢).

"والمكب الساقط على وجهه يقال أكبَّ خرَّ على وجهه وحقيقته صار ذا كبَ ودخلَ في الكبِّ كأقَشعَ الغمامُ أي صار ذا قَشع والمعنى أفمن يمشي وهو يعثرُ في كلِّ ساعةٍ ويخرُّ على وجههِ في كلِّ خُطوةٍ لتَوعرِ طريقه واختلال قواه أهدى إلى المقصد الذي يؤمُّه ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ أي قائمًا سالمًا من الخبط والعثار ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مستوي الأجزاء لا عوج فيه ولا انحراف"(٣)، أي بينهما فرق كبير في الدنيا والآخرة، ومن هنا وضح الفرق بين اهتداء المؤمنين وضلال الكفار، ومعلوم أن هذه الآية جاءت في سياق المثل، وهي تتحدث عن الهدي والضلال. قال ابن كثير: "وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبًا على وجهه أي: يمشي منحنيًا لا مستويًا، على وجهه: أي لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؟ بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾، أي: منتصب القامة ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٤).

تلون الوجه:

تأتي الألوان للتعبير عن النوع "الأصناف"، و"الأجناس"، أو "الهيئات". قال الطبري في تفسيره للفظ: "ألوان: يعني أنواعًا وأصنافًا مختلفة من بين حنطة وشعير وسمسم وأرز ونحو ذلك من الأنواع المختلفة"(٥)، وقال الزمخشري:

---

(١) أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، عبدالرحمن حسن حنبكة الميداني، ط١، دمشق، دار القلم، ١٩٩٦م، ص١٨٨، ١٨٩.
(٢) الملك: الآية (٢٢).
(٣) إرشاد العقل السليم ٩/٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم ١٨١/٨.
(٥) جامع البيان ٦٢٦/١٠.

"ألوانها: أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر، أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها"(١).

اللون الأبيض:

ذكر الله تعالى لفظ (ابيضت) في موضعين، الأول: في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٢)، وتعني "أهل طاعة الله عز وجل والوفاء بعهده"(٣)، وأتي لفظ (تَبيض) مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾(٤)، يعني "يوم القيامة حين تبيض وجوه المؤمنين وتسود وجوه الكافرين(٥)، والبياض من النور فهم في نعمة الله لا يظعنون عنها ولا يموتون(٦). يموتون(٦).

اللون الأسود:

ورد اللون الأسود سبع مرات في القرآن الكريم بعضها تمثل الكفر والارتداد والعصيان والتكذيب، فسواد الوجه يرمز إلى سواد الروح وتلونها تمثل وتجسم في وجوههم؛ لأن الوجه مرآة الروح ولا يخفي ما في الروح من الحالات، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾(٧)، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾(٨).

تتحدث الآية أن الذين كفروا قالوا بأن الله له بنات هم الملائكة، أما هم فلهم البنون، ثم تعرض الآيات أحد الجاهلين الذي رزقه الله بأنثى فاستاء بها وقد ظهر ذلك على وجهه فكان أسودًا(٩).

كما يرسم القرآن الكريم في سياق الآية السابقة صورة حسية توضح المشهد واصفة شخصية الإنسان الجاهلي الذي يكره البنات ويتمنى البنّين، وكان

---

(١) الكشاف ٣٠٧/٣.
(٢) آل عمران: الآية (١٠٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٦٩/٤.
(٤) آل عمران: من الآية (١٠٦).
(٥) تفسير الجلالين ٨١/١.
(٦) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٢٦٢/١.
(٧) الزخرف: من الآية (١٧).
(٨) النحل: الآية (٥٨).
(٩) ينظر: جامع البيان ٢٥٥/١٤ (بتصرف).

الرسم من خلال استخدام اللون الأسود، والذي يبدو من السياق أنه سياق تحذير للإنسان على أن يحذر عواقب الكفر، فتوافق الحال واللفظ.

قال الرازي: "إنما جعل اسوداد الوجه كناية عن الغم؛ وذلك لأن الإنسان إذا قوي فرحه انشرح صدره، وانبسط روح قلبه من داخل القلب، ووصل إلى الأطراف، ولاسيما إلى الوجه لما بينهما من التعلق الشديد، وإذا وصل الروح إلى ظاهر الوجه أشرق الوجه وتلألأ واستنار، وأما إذا قوي غم الإنسان، احتقن الروح في باطن القلب، ولم يبق منه أثر قوي في ظاهر الوجه، فثبت أن من لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه، ومن لوازم الغم كُمُودَة الوجه وغبرته وسواده"(١). فإنه "إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًا"، أي كئيبًا من الهم "وهو كظيم" ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن"(٢).

وقد ظهر اللون الأسود في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾(٣)، ليشكل علامة فارقة وواضحة من علامات الوجوه المعذبة "فإن الوجه عند الهم الكثير يميل لونه إلى السواد والكدة؛ لتهاجم الدم ونحوه"(٤).

ومع انتقال السياق من تأكيد الحدث والعقوبة يغير النص القرآني صيغه، بما يتوافق والسياق الجديد، ففي مثل السواد حضور ودلالة سواد الليل في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٥).

معنى الآية: "وصف وجوههم بالسواد، حتى كأنها ألبست سوادًا من الليل"(٦)، وكلمة ﴿أُغْشِيَتْ﴾ تدل على الإحاطة الكاملة من كل الأطراف لا يستطيع المصاب أن يخرقها فيفوتها، بل يكون داخلها حيران لا يدري ماذا يفعل، ففي هذا

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٠/٢٢٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٥٧٨.
(٣) آل عمران: من الآية (١٠٦)، والدلالة نفسها في الزمر: من الآية (٦).
(٤) تقرير القرآن إلى الأذهان، محمد الحسيني الشيرازي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ، ٤/٢٠.
(٥) يونس: من الآية (٢٧)، والدلالة نفسها في: إبراهيم: من الآية (٥٠).
(٦) تفسير الرازي ١٧/٢٤٣.

الأسلوب من العجز أمام قدرة الله وقهره ما لا يخفى، واشتداد اسوداد الليل وإظلامه ببيان حاله (مظلما) فهذا يزيد في وصف اسوداده[١]، فالليل ــ ومظلم لفظان يشيران إلى اللون الأسود، فالليل أسود، والظلام أسود، ففي هذه الآية يشبه الذين أحاطت بهم سيئاتهم فغشيتهم الذلة، وغطى سواد الأعمال وجوههم، "تصوير بديع مروع مرهب، كيف انتزعت فيه قطع من الليل المظلم فجعلت غطاء لهذه الوجوه"[٢].

اليـــــــد:

"اليدُ: الكفُّ، وقيل من أطراف الأصابع إلى الكف، وبعضهم قال إنها من المنكب إلى أطراف الأصابع، وهي مؤنثة محذوفة اللام، والنسب إليها يَدَويٌّ، والجمع أيْدٍ، ويُدِيٌّ وأيادٍ جمع الجمع، وقيل أكثر ما تستعمل الأيادي في النعم لا في الأعضاء"[٣].

وقوع الفعل من اليد أو إسناده إليها:

تركيب ورد ذكره في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ﴾[٤].

"والسَّقْطَةُ: الوَقْعَةُ الشديدةُ، وتساقط الشيء: تتابع سُقوطه"[٥]. يقال: سقط من يدي وسُقِط في يد الرجل: زلّ وأخطأ[٦]. قال الزَّجَّاج: "يقال للرَّجُل النَّادِم على ما فَعَلَ: الخَسِرُ على ما فرط منه قد سُقِط في يده وأُسْقِط"[٧]. وقد رويت سقط في القراءة، فالمعنى: ولما سقط الندم في أيديهم، كما تقول للذي يحصل على شيء ــ وإن كان مما لا يكون في اليد ــ قد حصل في يده من هذا مكروه، تُشَبِّهُ ما يحصُل في القلب وفي النفس بما يُرى بالعين"[٨]، ذلك أن ما حلّ بالقلب يظهر أثره في

(١) التحرير والتنوير ١٤٨/١١، ١٤٩ (بتصرف).
(٢) الإعجاز العلمي والبلاغي في القرآن الكريم، ص٣١٣.
(٣) ينظر: لسان العرب ٤١٩/١٥.
(٤) الأعراف: من الآية (١٤٩).
(٥) لسان العرب ٣١٦/٧ (س ق ط).
(٦) المصدر السابق ٣١٨/٧.
(٧) معاني القرآن وإعرابه ٣٧٨/٢.
(٨) معاني القرآن وإعرابه ٣٧٨/٢، وينظر: معاني القرآن للفراء ٣٩٣/١.

البدن. وأشار بعض المفسرين إلى أن هذا التركيب ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ جاء في سياق شدة الندم الذي أصاب قوم موسى ــ عليه السلام ــ على عبادتهم العجل(١).

إن تركيب (سقط في أيديهم) تركيب قرآني جديد، وقال الزبيدي: "هذا نظم لم يُسمع قبلَ القرآن ولا عرفته العرب، والأصل فيه: نزول الشيء من أعلى إلى أسفل ووقوعه على الأرض، ثم اتُسع فيه، فقيل للخطأ من الكلام: سَقَطٌ(٢)، وهذا الكلام كافٍ للقول بأن هذا تركيب قرآني جديد من تراكيب القرآن الكريم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ﴾(٣).

"وقوله ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ معناه أنهم يقولون كتبناه، ثم يضيفونه إلى الله كقوله: خلقت بيدي، وعملت بيدي ــ بأيدينا، أي نحن تولينا ذلك ولم نكله إلى أحد من عبادنا"(٤)، ومن الوارد أن السياق ذكر لفظ ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ لبيان أن عملية الكتابة قد فعلوها بأنفسهم ولم يكتبها أحد مكانهم، أو لم تمل عليهم، وأنهم فعلوها بطواعيتهم من دون إكراه، وقد حلل صاحب الدر المصون فائدة التوكيد في هذه الآية انطلاقًا من دور قوله ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ بعد الفعل ﴿يَكْتُبُونَ﴾، وذلك انطلاقًا من فكرة نفي المجاز، فلو اقتصر على قوله ﴿يَكْتُبُونَ﴾ لا نصرف الفهم إلى أنهم ربما أمروا غيرهم بالكتابة فيكون التعبير مجازًا، وهذا ليس مقصود الآية، ولذلك أدى هذا التوكيد فائدة معنوية دقيقة تمثلت في الدلالة على "أنهم باشروا ذلك بأنفسهم ولم يأمروا به غيرهم، فإن قولك: فعل فلان كذا يحتمل أنه أمر بفعله ولم يباشره، نحو: بني الأمير المدينة، فأتي ذلك رفعًا لهذا المجاز، ببيان جرأتهم ومجاهرتهم، فإن المباشرة للفعل أشد مواقعة ممن لم يباشره"(٥)، كما أن "ذكر

---

(١) التفسير الكبير ٣٦٩/١٥.
(٢) تاج العروس ٣٦٠/١٩ (س ق ط).
(٣) البقرة: من الآية (٧٩).
(٤) التبيان في تفسير القرآن ٣٢٢/١.
(٥) الدر المصون في علم الكتاب المكنون، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت٧٥٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم ــ دمشق ٤٥١/١.

﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد مثل: "نظرته بعيني"، ومثل: "يقولون بأفهواهم"، والقصد منه تحقيق وقوع الكتابة، ورفع المجاز عنها، وأنهم في ذلك عامدون قاصدون"(١).

ومن وقوع الفعل من اليد قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣).

ثمة جمالية أخرى في سياق التعبير بالكسب، وذلك أن العمل قد لا يكون من كسب الإنسان نفسه؛ لأن الكسب أخص من العمل، فقد يعمل الإنسان شيئًا جهلاً أو سهوًا فلا يؤاخذ كما مرَّ(٤). قال الزمخشري ــ رحمه الله ــ: "ولما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت، فقيل: في كل عمل هذا مما عملت أيديهم، وإن كان عملاً لا يتأتي فيه المباشرة بالأيدي، أو كان العمال جذمًا لا أيدي لهم"(٥)، وهكذا ذكرت لفظة ﴿أَيْدِيكُمْ﴾ مما يجعلها تتناسب والسياق الذي وردت فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(٦).

قال البيضاوي في تفسير هذه الآية: "ولما كانت اليد العاملة مختصة بالإنسان آلة لقدرته بها عامة صنائعه ومنها أكثر منافعه عبر بها عن النفس تارة والقدرة تارة أخرى"(٧).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾(٨).

بمعنى: الامتناع عن شيء، أي "أمسكوا عن قتال الكفار فلم يحن وقته"(٩)، أي منع أيديهم أن تمتد إليكم عقب همهم بذلك، لا أنه كفها عنكم بعد ما مدوها إليكم(١٠)، وفي كف الأيدي كناية عن النعمة التي أريد التذكير بها.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٧٧/١.
(٢) الشورى: من الآية (٣٠).
(٣) الروم: الآية (٤١).
(٤) تفسير سورة يس، محمد بن صالح العثيمين، دار البصيرة، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص٢٠٥.
(٥) الكشاف ٢٦/٦.
(٦) البقرة: الآية (٩٥).
(٧) أنوار التنزيل ٩٥/١.
(٨) النساء: من الآية (٧٧)، والدلالة نفسها في: الفتح: الآيات (٢٠)، (٢٤).
(٩) صفوة التفاسير ٢٦٧/١.
(١٠) مفاتيح الغيب ٤٧٠/١، ٤٧١.

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾[١]. وَالْأَبْصَارِ﴾[١]. قال البيضاوي: "أولى القوة في الطاعة والبصيرة في الدين أو أولى أولى الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة، فعبر بالأيدي عن الأعمال؛ لأن أكثرها بمباشرتها"[٢]، وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾، إن معناه أولى أولى القوة والعقول والعرب تقول مالي به يد أي قوة، ومالي به يدان وما لهم بذلك أيد أي قوة ولهم أيد وأبصارهم أولوا الأيدي والأبصار[٣]، وهكذا تتركز أهمية سياق المقام في الوقوف على المعنى، وتحديد دلالة الكلمات، وإفادة التخصيص.

وقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[٤].

"التباب الخسران المؤدي إلى الهلاك، وإنما وصف سبحانه يدي أبي لهب بالتباب، وإن كان هو المراد بذلك؛ لأن الأعمال إنما تكون بالأيدي ــ على ما تقدم من القول في بعض الآيات السابقة ــ فلما فعل فعلاً يؤدي إلى الخسار، ويفضي على البوار، جاز نسبة ذلك إلى يديه"[٥].

كما يتحكم السياق الخارجي الذي يحدد المعنى المقصود في زمن الفعل، فالفعل (تبت) "فعل ماضي معناه الاستقبال؛ لأنه دعاء عليه"[٦]، ويُعرف ذلك بتحديد المعنى المقصود في وقت نزول الآية، فلم يكن أبو لهب قد هلك أو خسرت يداه وقت نزولها، ولهذا فمعنى الفعل الاستقبال وإن كان لفظه ماضيًا.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[٧].

---

(١) ص: الآية (٤٥).
(٢) البيضاوي ٣١/٥.
(٣) لسان العرب ٤٢٣/١٥ (ي د د).
(٤) المسد: الآية (١).
(٥) الموسوعة القرآنية، خصائص السور، جعفر شرف الدين، تحقيق: عبدالعزيز بن عثمان التويجزي، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ ٢٩٩/١٢.
(٦) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ابن خالويه (أبو عبدالله الحسين بن أحمد، ت٣٧٠هـ)، ت٣٧٠هـ)، تصحيح السيد: عبدالرحيم محمود، دارالكتب المصرية ١٤٩١م، ص١٩٢.
(٧) الأنعام: الآية (٧).

اللَّمْس: "الجسُّ، وقيل المَسُّ باليدِ ... واللمس باليد أن تطلب شيئًا هَاهُنا وهَاهُنا"[١]، فاللمس أتت بمعناها الحقيقي في هذه الآية، أي: "مكتوبًا في ورق كما اقترحوه فلمسوه بأيديهم أبلغ من عاينوه؛ لأنه أنفى للشك ... (لقال الذين كفروا إن) ما (هذا إلا سحر مبين) تعنتًا وعنادًا"[٢].

في الآية تناوب في قوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾، ونجد مفهومه في قول الرازي وهو يفسره[٣]. ولما كانت حاسة اللمس للأشياء المادية فقد اشتغلت هذه الحاسة بدلاً عن الحاسة البصرية لضعفها أو عماها عند الكافرين بسبب حاجز الكفر الذي عطلها فاستعاض الكافر باللمس عن البصر لإزالة الشك والريب كما يزعمون، لذا ذكر الزمخشري في تفسير هذه الآية: "ولم يقتصر بهم على الرؤية لئلا يقولوا سكرت أبصارنا، ولا تبقى لهم علة، وذكر المحقق في الحاشية قال أحمد: والظاهر أن فائدة زيادة (لمسهم) له بأيديهم تحقيق القراءة على قرب، أي فقرأوه وهو في أيديهم لا بعيدًا عنهم لما آمنوا، وإلا فالخط لا يدرك (باللمس)"[٤]، (باللمس)"[٤]، كما أن دلالة العقل والحسّ ضابطة في فهم السياق القرآني لذلك التعبير بـ(لمسوه) فيه شمولية للرؤية واللمس، وفيه تأكيد على إصرار هؤلاء وعنادهم، وقد أشار الجرجاني (ت٤١٧هـ) إلى ذلك بقوله: "إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون"[٥]، وهذا ما أكده الفلاسفة واتفاقهم مع العلم الحديث في حساسية اليدين والقدمين أكثر من غيرها. جاء في موسوعة جسم الإنسان: "يحتوي الجلد على عصيبات صغيرة تدعي الحليمات الحسية تنتشر هذه في الأدمة وخاصة في أدمة اليدين والرجلين ... وتكثر لاقطات اللمس في اللسان وأطراف الأصابع أكثر منها في أماكن أخرى من الجسم والمثيرات العصبية تتحول إلى إيعازات عصبية تصل إلى الحبل الشوكي ومنه إلى مركز الدماغ (المهاد البصري) وهو يدرك لكنه لا يميز

(١) لسان العرب ٢٠٩/٤ (ل م س).
(٢) تفسير الجلالين، السيوطي، ص١٤٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١٨٤/١٥.
(٤) الكشاف ٦/٢.
(٥) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني المدني ٤٣/١.

المؤثرات، وهو مسؤول عن التحسس لكن وظيفته تتلخص بتنسيق المادة الحسية بضم المثيرات المتجانسة والواردة من نواح مختلفة من الجسم إلى بعضها البعض لكي تنتقل إلى القشرة الحاسة، وهي منطقة في الدماغ تتولى تحليل الإحساسات"(١)، كما أن الدلالة اللغوية ضابطة في فهم السياق القرآني، وذلك في قوله تعالى:﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

في تفسير الكشاف: "أي لما قبلها وما خلفها وما بعدها من الأمم والقرون"(٣).وقد جاء (بين أيديهم) في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾(٤)،أي"يعلم ما هوحاضر مشاهد لهم وهو الدنيا وما خلفهم أي أمامهم وهو الآخرة"(٥)، وقيل: "يعلم ما قبلهم وما بعدهم"(٦)، وكذلك قد جاء في تفسير قوله تعالى:﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(٧)، أي لن نصدق نصدق بالقرآن ولا بما سبقه من الكتب السماوية الدالة على البعث والنشور؛ لأنه ليس للقرآن يدان ولكنه استعارة لما سبقه من الكتب السماوية المنزلة من عند الله"(٨).

وجاءت اليد بمعنى أمامه أو قُدّامه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾(٩)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ

(١) موسوعة جسم الإنسان، زينب منصور حبيب، عمان، دار الإسراء، ٢٠٠٠م، ص٧٢، ٧٣.
(٢) البقرة: الآية (٦٦).
(٣) الكشاف ١٤٧/١.
(٤) البقرة: من الآية (٢٥٥).
(٥) صفوة التفاسير ١٤٧/١.
(٦) أنوار التنزيل ١٥٤/١.
(٧) سبأ: من الآية (٣١)، وبقية المواضع في الآيات: المجادلة: من الآية (١٢)؛ الأحقاف: من الآية (٣٠)، الحجرات: من الآية (١)، وقد وردت بمعنى قبلهما.
(٨) صفوة التفاسير ٥١٠/٢.
(٩) الأعراف: من الآية (٥٧).

شَدِيدٍ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾[٢].

وتركيب (من بين يديه) الذي كرر في سياق كثير من المواقع السابقة يعني ما تقدم الشيء وهذه دلالة على وجوده مسبقًا، فالسياق هو الذي يحدد قيمة الكلمة في أحوال ورودها في التركيب، ومن صفاتها الواردة في القرآن الكريم أيضًا، الأخذ والاكتساب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾[٣]، والأمر والتصرف في قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[٤]. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾[٦].

"قدم الفعل في الأولى وأخر في الثانية ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى﴾، والله أعلم: أن قوله في سورة التحريم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ يفهم من حيث المعية قرب المنزلة لما تقتضيه من الثبات، وتقدمه واستحكامه.

أما قوله في سورة الحديد ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ فبشارة للمؤمنين، ولم يأت هنا كونهم مع نبيهم، فلم يتحصل مما يفهم تمكن المنزلة وثبوتها ما تحصل في آية التحريم، إنما هذه بشارة، فناسبها التجدد والحدوث، فناسب ذلك الفعل بما يعطيه من المعنى فقيل ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، ليفهم التكرر

---

(١) سبأ: الآية (٤٦).
(٢) يس: الآية (٩)، ومثل ذلك بقية الآيات: البقرة: من الآية (٩٧)؛ آل عمران: من الآيات (٣٠)، (٥٠)؛ المائدة: من الآية (٤٨)؛ الأنعام: من الآية (٩٢)؛ يونس: من الآية (٣٧)؛ يوسف: من الآية (١١١)؛ فاطر: من الآية (٣١)؛ فصلت: من الآية (٤٢)؛ الأحقاف: من الآية (٢١)؛ الجن: من الآية (٢٧)؛ الصف: من الآية (٦).
(٣) المائدة: من الآية (٩٤).
(٤) سبأ: الآية (١٢).
(٥) الحديد: من الآية (١٢).
(٦) التحريم: من الآية (٨).

وحدوث الشيء بعد الشيء، فورد كل على ما يجب ويناسب"[(١)]، ومع انتقال السياق من معنى إلى معنى أخلص إلى تأييد القول الذي يرى ضرورة في حصول التوافق اللفظي والمعنوي بحسب المقام، وبحسب الحال الذي ظهر، فكان مدعاة للتنوع في الصفات.

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل، الغرناطي (أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي أبو جعفر، ت٧٠٨هـ)، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان ٤٦٨/١.

تلون اليـــــد:

أما لفظ (بيضاء)، فقد ورد في مواضع، منها قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ﴾[١]، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ﴾[٢]، ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾[٣]، ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾[٤].

نزع يده من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ﴾، وكان موسى رجلاً آدم، فأخرج يده، فإذا هي بيضاء أشد بياضًا من اللبن "من غير سوء، قال: من غير برص"[٥] آية لفرعون.

ونلاحظ أن كلمة ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ دليل على أن هذا البياض كان مرئيًا وليس صفة للنقاء أو الوضوح، وقد أجمع المفسرون على أنها كانت تتلألأ كضوء الشمس أو تبعث كضوء الشمس.

قال الراغب: "البياض في الألوان ضد السواد، يقال: أبيض يبيض ابيضاضًا وبياضًا، فهو مبيض وأبيض، قال الله ــ عز وجل ــ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾، ولما كان البياض أفضل لون عندهم كما قيل: البياض أفضل والسواد أهول، والحمرة أجمل، والصفرة أشكل، عبر به عن الفضل والكرم بالبياض، حتى قيل لمن لم يتدنس بمعاب: هو أبيض اللون"[٦].

في ضوء ما سبق من صفات تلون اليد، تبين اقتران المعاني بالألفاظ، وتزايد العلاقات في النص بين الدوال المنتجة لعدد غير متناه من الدلالات، تدور جميعها داخل إطار موحد، وما يحكمها ويجمعها هو السياق.

---

(١) الأعراف: الآية (١٠٨).
(٢) الشعراء: الآية (٣٣).
(٣) النمل: من الآية (١٢).
(٤) القصص: من الآية (٣٢).
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٥٧/٧.
(٦) المفردات ١٥٤/١ (ب ي ض).

المبحث الثالث
صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان ذات التعبير الحركي

ورد مصطلح الإيماءة في المصادر العربية القديمة بدلالات متباينة، غير أنها عامة تشير إلى حركة الجسم، تقول العرب: "أشار الرجل يشير إشارة إذا أومأ بيديه"(١)، فالشائع استعمال اليد في الإيماءة إلى الشيء، غير أن الإيماءة قد تكون: باليد والعين والثوب والفم(٢). ويؤكد ذلك الزبيدي بقوله: "شوَّر إليه بيده: أومأ، كأشار، ويكون ذلك بالكف والعين والحاجب"(٣).

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾(٤). يفسر القرطبي الآية بقوله: "الإشارة قد تكون في بعض المواضع أقوى من الكلام"(٥)، وهي الإيماءة التي يعرفها المحدثون بأنها: "تعبير يربط الدال والمدلول عن طريق الحس القائم على فعل التجاوز كإشارة الإصبع إلى اللوحة"(٦).

ومن القدماء العرب الذين اهتموا بالإيماءة وتفسيرها الجاحظ إذ يقول: "فأما الإشارة باليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف. وقد يتهدد رافع السيف والسوط فيكون ذلك زاجرًا، ومانعًا رادعًا، ويكون وعيدًا وتحذيرًا"(٧)، وهي بذلك "أية حركة جسمية باستثناء الكلام، تحدث شعوريًا أو لا شعوريًا بغية الاتصال مع الذات أو الاتصال بالغير"(٨)، وجميع وجميع الحركات العضوية كإشارة اليدين وتعبيرات الملامح، وحركة العينين، وهز

---

(١) لسان العرب ٤٣٧/٤ (ش و ر).
(٢) الإشارات الجسمية: دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل، كريم زكي حسام الدين، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١، ص٤٠.
(٣) تاج العروس ٢٥٧/١٢ (ش و ر).
(٤) مريم: الآية (٢٩).
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٠٥/١١.
(٦) علم اللسانيات الحديثة، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنشر والتوزيع، الأردن، ١٤٢٢هـ ١٤٢٢هـ ــ٢٠٠٢م، ص٧٦.
(٧) البيان والتبيين، الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، أبو عثمان الجاحظ، ت٢٥٥هـ)، مكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٨٣/١.
(٨) دراسات في علم اللغة، فاطمة محجوب، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ت)، ص١٧٠.

الرأس مما يعتبر قرائن حالية، أو مقالية في أثناء الكلام، وسوف أعــرض هــذه الحركات فيما يأتي:

حركة الرأس:

وقد أبرز القرآن الكريم عن طريق تنوع حركة أوصاف الرأس كثيرًا من المعاني السياقية المتعددة، منها:

رفع الرأس:

قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء﴾[١].

﴿مُهْطِعِينَ﴾، أي: "مسرعين إلى إجابة الداعي"[٢]، وهذا يدل على أن الداعي الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبون دعوته، ويسرعون إلى إجابته، فقد نقلت هذه الآية مشهدًا حيًا متحركًا يوحي بالذل والخوف، والملبي لنداء ربه والمنطلق إليه في صمت وتذلل وخوف، قال سيد قطب: "وهذه الجموع خاشعة أبصارها من الذل والهول، وهي تسرع في سيرها نحو الداعي، الذي يدعوها لأمر غريب نكير شديد لا تعرفه ولا تطمئن إليه ... وفي أثناء هذا التجمع والخشوع والإسراع يقول الكافرون: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾، وهي قولة المكروب المجهود، الذي يخرج ليواجه الأمر الصعيب الرعيب"[٣]، فجاءت الصفة دالة على هذا المعنى، فتوافق الحال واللفظ، وهذا ما يقتضيه السياق.

لي الرؤوس:

جاء هذا التعبير الفريد تصويرًا لحال المنافقين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[٤].

"(لوي) اللام والواو والياء أصل صحيح، يدل على إمالة للشيء. يقال لوَى يده يلويها. ولوى برأسه: أماله"[٥].

ففي التفسير الميسر: "وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: أقبلوا تائبين متعذرين عمَّا بدر منكم من سيئ القول وسفه الحديث، يستغفر لكم رسول الله ونسأل الله

---

(١) إبراهيم: الآية (٤٣)، والدلالة نفسها في: القمر: من الآية (٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي (عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي، ت:١٢٧٦هـ)، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ ــ ٢٠٠٠م، ٤٢٧/١.
(٣) في ظلال القرآن ٣٤٢٩/٦.
(٤) المنافقون: الآية (٥).
(٥) المقاييس ٥١٨/٥ (لوى).

لكم المغفرة والعفو عن ذنوبكم، أمالوا رؤوسهم وحركوها استهزاءً واستكبارًا، وأبصرتهم ــ أيها الرسول ــ يعرضون عنك، وهم مستكبرون عن الامتثال لما طُلب إليهم"(١)، فظهر أثر السياق في تحديد دلالة الكلمة، فحصل توافق لفظي معنوي.

نفض الرأس:

جاء هذا الوصف في القرآن الكريم في خطاب كفار قريش في سياق إنكارهم للبعث في قوله تعالى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾(٢).

"قال الفراء: يقال: أنغض فلان رأسه ينغضه إنغاضًا إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل وسُمِّي الظليم نغضًا؛ لأنه يحرك رأسه"(٣).

تنقل هذه الآية مشهدًا من مشاهد تعجب الكفار الذين كانوا يهزون رؤوسهم ويحركونها تعجبًا(٤)، حينما كان الرسول ﷺ يخبرهم بأن الله القادر على البدء قادر على الإعادة، وقيل: "فسيحركونها نحوك تعجبًا واستهزاءً"(٥). هكذا جاءت كلمة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ متوافقة مع سياق المعنى، وتعجبهم من هذه الحقيقة يجسدون أبلغ صور الاستبعاد من خلال حركة الجسد التي يقومون بها سخرية وتعجبًا، فقد صور هذا الفعل حالهم أبدع تصوير.

النكس على الرأس:

جاء هذا التعبير في موضعين في القرآن الكريم:

---

(١) التفسير الميسر، إعداد نخبة من أساتذة التفسير، مجمع الملك فهد ــ السعودية، ط٢، ١٤٣٠هـ ــ٢٠٠٩م، ٥٥٥/١.
(٢) الإسراء: الآية (٥١).
(٣) مفاتيح الغيب ٣٥٣/٢٠.
(٤) تفسير الجلالين ٣٧١/١.
(٥) تفسير النسفي ٢٦١/٢.

أولهما: في قصة إبراهيم ــ عليه السلام ــ مع قومه حين بهتهم بهذا السؤال تهكمًا بهم: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ﴾(١).

وثانيهما: في وصف حال المجرمين عند ربهم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ

(١) الأنبياء: الآيات (٦٣ــ٦٥).

الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[١].

قال الزمخشري: "نكسته: قلبته، فجعلت أسفله أعلاه، وانتكس: انقلب، أي: استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم، وجاءوا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة، أو قُلبوا على رؤوسهم حقيقة لفظ إطراقهم خجلاً وانكسارًا وانخزالاً مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام، فما أحاروا جوابًا إلا ما هو حجة عليهم"[٢].

وتدل تنكيس الرأس على الحياء والخزي، فالله سبحانه يخبر عن حال المشركين الذين أنكروا البعث، حين عاينوا البعث وقاموا بين يدي الله حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم[٣]. كما نقلت هذه الآية صورة أخرى حية ومعبرة عن الإنسان المجرم في حق نفسه؛ لأنه لم يختر لها طريق الإيمان، وتركها تتردى في حمأة الكفر والضلال، حتى إذا لقي ربه شعر بالخزي والندم، واعترف بالخطأ، وطأطأ رأسه ذلاً وانكسارًا، فهو سياق يدل على "العموم قصدًا على تفظيع حال المجرمين وأن قد بلغت من الظهور على حيث يمتنع خفاؤها ألبتة، فلا تظهر رؤية راء دون راء، بل كل من يتأتي منه الرؤية فله مدخل في هذا الخطاب"[٤].

قال صاحب الظلال: "إنه مشهد الخزي والاعتراف بالخطيئة، والإقرار بالحق الذي جحدوه، وإعلام اليقين بما شكوا فيه، وطلب العودة إلى الأرض لإصلاح ما فات في الحياة الأولى ... وهم ناكسوا رؤوسهم خجلاً وخزيًا... (عند ربهم) ... الذي كانوا يكفرون بلقائه في الدنيا، ولكن هذا كله يجئ بعد فوات الأوان حيث لا يجدي اعتراف ولا إعلان"[٥]، وهكذا كان اختيار القرآن الكريم لهذه الصفة، لما فيها من دلالة تتفق وما يتطلبه السياق.

حركة الرجل:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[٦].

---

(١) السجدة: من الآية (١٢)، والدلالة نفسها في الإسراء: الآية (٥١).
(٢) الكشاف ١٢٥/٣.
(٣) أنوار التنزيل ٢٢٠/٤.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ١٨٠/١.
(٥) في ظلال القرآن ٢٨١١/٥.
(٦) النور: من الآية (٣١).

نلمس من خلال سياق الآية الكريمة حرص القرآن الكريم ودعوته للنساء إلى الحفاظ على سترهن، ولا يخفي، استعمال القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ﴾ فيراد منه النهي عن ضرب المرأة برجلها إذا مشت لتسمع صوت خلخالها، فإسماع الزينة كإبدائها والغرض منه التستر، وقد يتضمن هذا السياق المعنى الحسي للضرب، وذلك من خلال ضرب الأرض بالرجل والإيقاع بشدة ليُسمع الصوت، إلا أن الغرض من النهي هو الحرص على ستر المرأة لكيلا يعترضها أحد، إذا "كانت المرأة تضرب الأرض برجلها ليتقعقع خلخالها فإن ذلك يورث الرجال ميلاً إليهن، ويوهم أن لهن ميلاً إلى الرجال"(١)، وقال الزَّجَّاج: "فإذا ضَربت برْجلها عُلم أنها ذات خَلْخال وزينةٍ وهذا يُحرك من الشهوة فنهى عنه"(٢)، ولا يخفي ما لهذا الحكم من الأهمية في الحفاظ على عفة المرأة وحشمتها، "وفي النهي ... مبالغة فوق مبالغة ليعلم أن كل ما يجر إلى الفتنة يجب الاحتراز منه"(٣).

حركة العطف:

لقد رسم السياق في القرآن الكريم صورة المجادل في الله بغير علم ولا هدى؛ حيث يكون لاويًا عنقه دلالة على الصدود استخفافًا وإعراضًا في الحق كما في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾(٤).

ثَنْي الْعِطْفِ معروف في اللغة مشهور جدًا وهي بمعنى لَيِّ العنق والإعراض والتكبر، والعِطْفُ في اللغة هو ما قال صاحب العين: "... وعطفا كل شيء جانباه (وعطفا الإنسان) من لدن رأسه إلى وركه"(٥)، فيدخل فيه العنق. جاء في التفسير أن معناه: لاويًا عنقه، وهذا يُوصف به المتكبر، فالمعنى: "ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ثاني عطفه"(٦). وقال ابن جرير: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾،

---

(١) إعراب القرآن وبيانه، محي الدين بن أحمد مصطفى درويش (ت١٤٠٢هـ)، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص ــ سوريا، دار اليمامة (دمشق ــ بيروت)، ط٤، ١٤١٥هـ، ٥٩٦/٦.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤٠/٤.

(٣) تفسير النيسابوري ١٨٤/٢.

(٤) الحج: من الآية (٩).

(٥) العين ١٧/٢.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٦/١٢، وينظر: التحرير والتنوير ٢٠٧/١٧.

"وصفه بذلك لتكبره وتبختره، وذكر عن العرب أنها تقول: جاءني فلان ثاني عطفه:إذا جاء متبخترًا من الكبر،ثم قال بعد ذلك...وقال آخرون:بل معنى ذلك: لاوٍ رقبته، ثم قال بعده، وقال آخرون: معنى ذلك أنه من كبره إذا دُعى إلى الله أعرض عن داعيه،لوى عنقه عنه ولم يسمع ما يقال له استكبارًا[١].

"وهذا يعني أن الكلمة من خلال علاقتها بغيرها من الكلمات في التركيب أعطت الكناية عن الصفة وهي الكبر والخيلاء، وأفادت هيئة الفاعل وصورته في تحركاته ومشيه بين الناس بطريقة تلفت النظر ويلام عليها"[٢].

حركة العنـــــــق:

ورد العنق في القرآن الكريم في سياق النصائح التي وجهها لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾[٣].

"خدي الإنسان وهما: ما اكتنفا الأنف عن اليمين والشمال"[٤].

"يقال: صاعر وصعَّر: إذا أمال عنقه إلى جانب ليعرض عن جانب آخر وهو مشتق من الصّعَر بالتحريك لداء يصيب البعير فيلوي منه عنقه؛ لأنه صيغ له صيغة تكلف بمعنى تكلف إظهار الصّعر وهو تمثيل للاحتقار؛ لأن مصاعرة الخد هيئة المحتقر المستخف في غالب الأحوال"[٥]، والمعنى: "لا تحتقر الناس، فالنهي عن الإعراض عنهم احتقارًا لهم لا عن خصوص مصاعرة الخد، فيشمل الاحتقار بالقول والشتم وغير ذلك فهو قريب من قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[٦]، إلا أن أن هذا تمثيل كنائي والآخر كناية لا تمثيل فيها"[٧]، وهو يطلق في أصله ويراد به به إمالة العنق بسبب داء يصيبه "صعَّر: "الَّصعْر مَيْل في العنق والتَّصعُير إمالته عن النّظر كبرًا، وكل صعب يقال له مُصْعَرُ والظَّليم أصْعَرُ خلقَةً"[٨].

---

(١) جامع البيان ٥٧٤/١٨.
(٢) أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم، د. سيد الصاوي، ص٢٨٦.
(٣) لقمان: من الآية (١٨).
(٤) المفردات ٢٧٦/١ (خ د د).
(٥) التحرير والتنوير ١٦٦/٢١.
(٦) الإسراء: من الآية (٢٣).
(٧) التحرير والتنوير ١٦٦/٢١.
(٨) المفردات ٤٨٤/١ (ص ع ر).

والمعنى: "أقبل على الناس بوجهك متواضعًا ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعل المتكبرون"(١)، ويؤكد البقاعي المعنى السابق بقوله: "ولما كان من آفات العباد ــ لاسيما الأمر والنهي لتصورهما بصورة الاستعلاء ــ الإعجاب إلى الكبر، قال محذرًا من ذلك معبرًا عن الكبر بلازمه؛ لأن النفي الأعم نفي للأخص، منبهًا على أن المطلوب في الأمر والنهي: اللين لا الفظاظة والغلظة الحاملان على النفور، فالمعنى: لا تمله معتمدًا إمالته بإمالة العنق متكلفًا لها صرفًا عن الحالة القاصدة، وذلك لا يكون إلا تهاونًا بهم من الكبر، بل أقبل عليهم بوجهك كله مستبشرًا منبسطًا من غير كبر ولا علو وامش هونًا فإن ذلك يفضي بك إلى التواضع، فتصل إلى كل خير فترفق بك الأرض"(٢).

حركة العيـــــن:

قد تغدو العين ــ في سياق ما ــ لسانًا فصيحًا ينطق بمعانٍ، فيستجيب من يعاينها بعد استشعار مرادها المتشكل من هيئة تشكلها، استجابة عملية أو كلامية، وللقدماء التفاتات معجبة إلى مساهمة العين في التواصل والإبانة، والبيان والتبيين، وقد انبنى على اعتبارهم لهذا التقرير تقرير بأهميتها في الإبانة عن مكنونات النفس وضمائرها، وقد عقد ابن عبد ربه بابًا في (العقد) سمّاه (الاستدلال باللحظ على الضمير)، وقد أورد فيه نماذج واضحة الدلالة من التراث العربي الأدبي على أثر العين في التواصل والإبانة..."(٣).

دوران الأعـــين:

كان لتنوع أوصاف العين في البيان القرآني أثر واضح في إبراز دور السياق لكثير من المعاني التي كشفت عن دواخل أصحابها وانفعالاتهم النفسية، فقد دل التعبير (بدوران أعينهم) في قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾(٤) عن صورة شاخصة لحالة الخوف التي سيطرت على المنافقين من خلال تصوير هيئة نظرهم

---

(١) الكشاف ٤٩٧/٣.
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي ١٧٦/١٥، ١٧٧.
(٣) العقد الفريد، ابن عبد ربه (أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن جرير بن سالم الأندلسي، ت:٣٢٨هـ)، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.
(٤) الأحزاب: من الآية (١٩).

كنظر الخائف المذعور من الموت، ولا يخفى أن الدوران يعني الحركة، فأعينهم "تدور يميناً وشمالاً، وذلك سبيل الجبان ... ويقال للميت إذا شخص بصره: دارت عيناه، ودارت حماليق عينيه"(١).

ويمكن أن نستأنس بالبنية المعجمية لمادة (دور) للكشف عن مزيد من التعبيرات النفسية للمنافقين الذين تدور أعينهم في سياق الآية، "فالدُوار، والدَّوارُ كالدَّوران داء يأخذ في الرأس"(٢).

إن إسناد الدوران إلى العيون (وعدم الاكتفاء بقوله ينظرون)، وتشبيهه بنظر المغشي عليه الذي يعاني سكرات الموت تعبير دقيق عن حالة الخوف والرهبة الكاملة؛ لأن الفعل (د و ر) يعني اللف حول الشيء، وهذا يوضح اضطراب نفوسهم، وتغلغل الخوف فيها، مما يجعلهم يبحثون عن مفر يلجئون إليه، أو حل لما هم فيه، لذا تدور الأعين في أرجاء المكان، ينظر أحدهم في وجه الآخر، وتنقلب أحداقهم في حركة دائبة، وهذا المعنى لن يألف لولا وجود دليل الخوف البادي في الآية ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾.

"والتشبيه ركيزة أخرى من ملامح التعبير عن النفسية الوجلة هنا ﴿كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ فهو يصور عظم الخوف، ويقرب صورته، لما يكون عليه حال المغشي عليه من انهيار وخور، فلا يرى الأشياء كما هي، بل يشعر بدوران الأرض حوله، ثم فقد الوعي، ولم تكن حركة عيونهم أمارة حيوية أو حياة، وإنما مظهر عجز واستسلام ... وهكذا حال المنافقين الخائفين الشديدة في الآية"(٣).

والآية الكريمة تشير إلى حقيقة علمية، وهي "دوران مقلة العين من شدة الخوف، فيبطل الإدراك، وتختل المراكز العصبية اللاواعية في منطقة مهاد المخ،

---

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣٧٩/٤. "حملاق العيْن بالكسر، والحُملاق بالضم، والحُملوق كعُصْفور: باطن أجفانها الذي يسوَد بالكحْلة، أو ما غطّتهُ الأجفان من بياض المُقْلة. تاج العروس ٢٠٥/٢ (م ل ق).

(٢) لسان العرب ٢٩٥/٤ (د و ر).

(٣) الخطاب النفسي في القرآن الكريم: دراسة دلالية أسلوبية، د. كريم حسين ناصح الخالدي، دار صفاء، الأردن، ص٤٨.

فيصير شبيهًا بحالة الذي يُغشى عليه من الموت، إذ تدور مقلته وتتسع حدقته، وتثبت على اتساعها حتى يموت"(١).

حركة الوجه :

يختزل الوجه دلالات نفسية شتى، تعبر عما يدور في الذهن، ويكاد الوجه ينطق بوساطة أحواله وصفاته، ويرى فخر الدين الرازي: "أن الأحوال الظاهرة في الوجه قوية الدلالة على الأخلاق الباطنة، فإن للخجالة لونًا مخصصًا في الوجه، وللخوف لونًا آخر، وللغضب لونًا ثالثًا، وللفرح لونًا رابعًا، وهذه الألوان متى حصلت في الوجه فإنه يقوي دلالتها على الأخلاق الباطنة"(٢). والوجه أشرف أعضاء الجسم بما احتواه من المنافذ وأسباب الإحساس؛ ولأن أحوال الإنسان من غضب ورضا، وعزة وذلة وغيرها تظهر على وجهه. وللوجه في القرآن الكريم دلالات متعددة تستفاد من سياق الكلام، وقد اتخذ البيان القرآني من تنوعه طرقًا للإبانة عن كثير من المعاني المتعددة، منها على سبيل المثال:

صك الوجه:

قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾(٣).

الصَّكُّ: الضَّرْبُ الشديدُ سواء كان بشيء عريض أو بغيره(٤)، وفي قول: "الصَّكُّ هو الضرب باليد أو بحجر"(٥).

ورد التعبير بصك الوجه في شأن زوج إبراهيم الخليل ــ عليه السلام ــ بعد سماعها لبشارة الملائكة له بالولد، لجأت زوج إبراهيم عليه السلام إلى لطم وجهها ببسط يديها، فهذه الإيماءة قد تدل على الخجل، أو التعجب والاستغراب، وبيَّن مسار السياق الحالي أن للآية سبب نزول، قال الزمخشري: "أقبلت إلى بيتها، وكانت في زاوية تنظر إليهم؛ لأنها وجدت حرارة الدم، فلطمت وجهها من

---

(١) الكون والإنسان بين العلم والقرآن، بسام دفضدع، ط١١، دمشق، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٤م، ص٢٢١.

(٢) الفراسة، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، تحقيق وتعليق مصطفى عاشور، مطبعة القرآن للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٨٢.

(٣) الذاريات: الآية (٢٩).

(٤) لسان العرب ٤٥٦/١٠ (صك) بتصرف.

(٥) جمهرة اللغة ١٥١/١ (صك).

الحياء ﴿فَصَكَّتْ﴾ فلطمت ببسط يديها، وقيل: فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب"(١)، فهو دلالة عرفية أصبحت لها مركزيتها بتكرار استعماله في الموقف نفسه بين الناس، ومن المفيد أن نستأنس في هذا السياق بتعقيب ابن جني على قول الشاعر:

تقول: وصَكَّت وجْهَهَا بيمِينهَا أَبَعْلِيَ هذا بالرَّحى المتقاعِسُ؟

"فلو قال حاكيًا عنها: أبعلي ... من غير أن يذكر صك الوجه ــ لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة، لكنه لمّا حكى، قال: (وصكت وجهها). عُلم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصورة لها"(٢)، فهذا الفعل (صك الوجه) زاد في إيصال معنى الإنكار وقوته وعظمة عيب فعل زوجها، وبهذا يكون ضرب الوجه كناية ودلالة على الاستغراب أو تحسر وتألم كما في قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُم﴾(٣).

وما يعنينا في هذا السياق هو التعبير الحركي الذي يتمثل بلطم الوجه في حالة الاستغراب الشديد، فلماذا يلجأ الإنسان إلى هذا الشكل التعبيري؟ هل هو محاولة لتخفيف احتقان الدم في الوجه، أم محاولة للعودة إلى الواقع قبل حدوث الدهشة؟. ومهما كان التعليل لهذا الشكل من التعبير والصفة والحالة، فإن صك الوجه أو لطمه خطابًا لغويًا مضمرًا للتعبير عن أشد المواقف استغرابًا ودهشة كما ثبت ذلك في القرآن الكريم وأكده ابن جني.

تقلب الوجه:

قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾(٤).

يفيد تقلب الوجه في الآية النظر في السماء؛ لأن من معاني مادة (قلب) ما يتفق مع الدلالة السياقية للآية، وهي تحول القبلة من بيت المقدس إلى مكة، إذ إن "القلب تحويل الشيء عن وجهه"(٥)، كما أن إضافة المصدر (تقلب) إلى الوجه

---

(١) الكشاف ٤٠٢/٤.

(٢) الخصائص ٢٤٥/١، ٢٤٦؛ المكتبة العلمية الرَّحى: الصدر، والقَعُس: خروج الصدر ودخول الظهر، والمتقاعس: الذي يدفع صدره إلى الإمام والخلف بصورة متوالية. ينظر: تاج العروس ١٣٤/٣٨، ٣٨٠/١٦ (ق ع س)، والبيت من بحر الطويل.

(٣) الأنفال: من الآية (٥٠).

(٤) البقرة: من الآية (١٤٤).

(٥) لسان العرب ٦٨٥/١ (ق ل ب).

يحوي وشائج بين مادة (وجه) والسياق، فالوجه والوجهة: القبلة، ومن إشراقات الإعجاز اللغوي في هذه الآية مجيء (وجهك) بدل من (نظرك)؛ لأن من معاني مادة (وجه) ما يتعلق بالسماء، تقول: "أَجْهَتِ السماءُ فهي مُجهِية إذا أصْبَحَت"(١)، "واعترض بأن من رفع بصره إلى السماء مرة واحدة لا يقال له: قَلّبَ بصرة إلى السماء، وإنما يقال: قلّب إذا داوم، فالكثرة تفهم من الآية لا محالة"(٢)، وفي إسناد التقليب للوجه كناية عن صعوبة انتظار تحوله ﷺ من بيت المقدس إلى الكعبة، كما يوحي التركيب بكثرة حدوث ذلك منه ﷺ(٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾(٤)، فجعل توجيه الوجه كناية عن الطاعة(٥).

حركة اليد أو جزء منها:

وفي القرآن الكريم دلالات متنوعة يعين على إبرازها السياق والمقام، وقد تنوعت حركة اليد في البيان القرآني، فهناك قبض اليد، وبسط اليد، ورد اليد إلى الأفواه، والعض على اليدين، أو الأنامل، واللمس باليد، والضرب باليد أو الوكز بها أو إدخالها في الجيب، أو الإشارة بها، وكل هذه الحركات أو الصفات لليد تفرع عنها كثير من الدلالات، فقد تؤدي الحركة الواحدة دلالات شتى يحددها السياق أو المقام.

رد الأيدي إلى الأفواه:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾(٦).

(الرَّدُّ) لغة هو: "صرف الشيء بذاته، أو بحالة من أحواله، يقال: رَدَدْتُهُ فارْتَدّ، "فردوا أيديهم في أفوافهم: أومأوا إلى السكوت، وأشاروا باليد إلى الفم"(١). الفم"(١).

---

(١) المصدر نفسه ٥٥٨/١٣ (و ج هـ).
(٢) روح المعاني ٤٠٧/١.
(٣) ينظر: مفاتيح الغيب ٤٨٧/٢، والفتوحات الإلهية ١١٧/١.
(٤) الأنعام: من الآية (٧٩).
(٥) مفاتيح الغيب ٤٠٤/٦.
(٦) إبراهيم: الآية (٩).

ذهب الزمخشري إلى أنهم: "عضوها غيظًا وضجرًا مما جاءت به الرسل ... أو ضحكًا واستهزاءً كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾، أي: هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره إقناطًا لهم من التصديق ... وهذا قول قوي، أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا، أو ردوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت، أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون"(٢).

ويضيف الشوكاني دلالة التعجب، إلى دلالات الزمخشري "وضعواْ أيديهم على أفواههم استهزاءً وتعجبًا كما يفعله من غلبه الضحك من وضع يده على فيه"(٣)، وكلها دلالات محتملة لحركة اليد على الفم وصفتها، وهكذا تكون صفة اليد وحالها تختلف باختلاف السياق، وهذا ما أكده الشيخ سيد قطب بقوله: "يرسم السياق هذه الحركة التي تدل على جهرهم بالتكذيب والشك، وإفحاشهم في هذا الجهر، وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق إمعانًا منهم في الجهر بالكفر"(٤)، فكان تصوير المشهد بليغًا ومؤثرًا في تقريب الصورة أكثر للقارئ، فاستعمال الجوارح مجازًا أو كناية كثُر في القرآن الكريم لتصوير أمر معين بصورة فنية جميلة، تتحدد معانيها عن طريق السياق.

العض على اليدين والأنامل:

وردت دلالة (العض على اليدين) في سياق من ندم وحسرة الكافرين على ما فات من فرصة التصديق في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾(٥).

"العض: أزْمُ بالأسنان"(١)، "وعض اليدين إما على ظاهره، وروي ذلك عن الضحاك(٢) وجماعة قالواْ: يأكل يديه إلى المرفق ثم تنبت ولا يزال كذلك كلما أكل

---

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن الكريم ٣٤٨/١، ٣٤٩ (ر د د).
(٢) الكشاف ٥٤٢/٢، والمعنى نفسه في روح المعاني ١٨٣/٧.
(٣) فتح القدير ١١٦/٣.
(٤) في ظلال القرآن ٢٠٩٠/٤.
(٥) الفرقان: الآية (٢٧).

نبت، وإما كناية عن فرط الحسرة والندامة"[٣]، فالدلالة الحقيقية هنا والتي تكمن في اللفظ تلك الحركة المادية التي تتمثل في وضع اليد بين الأسنان، والضغط بها عليها، وهي غير مقصودة؛ لأنها لا قيمة لها في ذاتها، أما الدلالة الثانية: وهي الدلالة المجازية التي تكمن وراء هذه الألفاظ، وهو الإحساس بالندم والحسرة على ما فات، وهو المراد من الآية الكريمة، وهنا يصور السياق الغيظ في صورة حسية مجسمة أمام القارئ، ولا شك أن السياق هنا يُشعر بالمعنى، كما أن الموقف ساعد في فهم السياق.

غل اليد وبسطها:

التصوير ببسط اليد في البيان القرآني أفاد عن معانٍ سياقية متنوعة، فقد أفاد ببسط اليد عن القتل والبطش والأذى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[٥]، وبسط اليد والكف تارة يستعمل للأخذ كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ﴾[٦]، أي يسلطون عليهم، وتارة يستعمل للطلب كقوله تعالى: ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾[٧]، أي: كالداعي إلى الماء يومئ إليه ليجيبه، وتارة يستخدم للصولة والضرب، كقوله

---

(١) المفردات ٥٧٠/١ (ع ض ض) "عَضَضْتُه أعَضُّ وعضِضْتُ عليه عَضًا وعِضاضًا وعَبضًا: أمسكته بأسناني وشَدَدْتُه بها أو بلساني، والأزم: أزَم يأزم من حَدَّ ضرب أزْمًا وأُزومًا بالضم، فهو آزم وأزُوم كصاحب وصبور: عَضَّ بالفم كُلَّه شديدًا وهو أن يَعَضَّ ثم يُكر عليه ولا يُرْسِلُه، وقيل: هو أن يَقْبض عليه بفيه". ينظر: تاج العروس ٤٣٣/٨ (ع ض ض) ٢١١/٣١ (أ ز م).

(٢) الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم، أو أبو محمد الخراساني، صدوق، كثير الإرسال من الخامسة، مات بعد المائة. (ينظر: تقريب التهذيب ٢٨٠/١).

(٣) روح المعاني ١٣/١٠.

(٤) المائدة: الآية (١١).

(٥) المائدة: الآية (٢٨).

(٦) الأنعام: من الآية (٩٣).

(٧) الرعد: من الآية (١٤).

تعالى: ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[١]، وتارة للبذل والعطاء ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٢].

"بسطَ الشيء: نَشَرَهُ ... وأرض بَساطُ (بسيطةُ) مُنْبَسَطة مستويَة، و(بسط) فلانُ يَدَهُ بما يُحِبُّ ويكْرَهُ، و(بسط) إليَّ يَدَه بما أَحِبُّ وأكره، و(بسطُها) مَدها"[٣].

إذن هي لفظة تجمع في دلالتها: الخير والشر، والكرم والجود، والقتل والضرب، وهي في أصل معناها الامتداد والنشر، فقد تمتد اليد في الخير وقد تمتد في الشر، وهو امتداد معنوي في الغالب يتحدد كل ذلك عن طريق السياق الذي ترد فيه.

أما النهي عن التقتير فهو في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[٤]، فهو المعنى الكنائي المقصود وهو غاية العبارة، وإذا تحققنا من السياق في فاصلتي الآية ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ﴾، نقف على صورتين، هما: غل اليد، وبسط اليد، وبما إن العطاء يكون بيد مبسوطة، لا بيد منكمشة مقبوضة، صارت المعادلة كالتالي: قبض اليد = الكف عن العطاء، وبسط اليد = فعل العطاء[٥]، يقول السكاكي: "حقيقته لا تكونن ممسكًا، والاستعارة والاستعارة أبلغ؛ لأن الغل مشاهد والإمساك غير مشاهد، فصور له قبح المغل ليستدل به على قبح الإمساك"[٦]، وفي كلمة (مغلولة) دلالة لا يؤديها أي من مراد مراد فاتها مثل كلمة (مقبوضة) فاليد المغلولة هي التي أدخلت الغُلُّ والغُلُّ "طوق من حديد أو جلد يجعل في عنق الأسير أو المجرم أو في أيديهما"[٧]؛ لئلا يلتفتوا إلى الحق، ولا يعطفوا أعناقهم نحوه، ولا يميلون إليه (فهي) ملزمة برقابهم واصلة إلى الأعناق.

---

(١) الممتحنة: من الآية (٢).
(٢) المائدة: من الآية (٦٤).
(٣) لسان العرب ٧/٢٦٠ (ب س ط).
(٤) الإسراء: الآية (٢٩).
(٥) نحو الصوت ونحو المعنى، نعيم علوية، ص٩٥.
(٦) كتاب الصناعتين ١/٢٧٥.
(٧) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، ٢/٦٦٠ (غ ل ل).

وبالتالي أصبح من قيمة السياق، وما يؤديه من أثر في النفس البشرية أنه يرسم للبخيل صورة منفرة، "حيث كان قبح الشح مقارنًا له معلومًا من أول الأمر رُوعي ذلك في التصوير بأقبح الصور، ولما كان غائلة الإسراف في آخره بُيِّن قبحه في أثره فقيل: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾، أي: فتصير ملومًا عند الله وعند الناس وعند نفسك إذا احتجت ونَدِمت على ما فعلت (محسورًا) نادمًا أو منقطعًا بك لا شيء عندك من حَسره السفر إذا بلغ منه"(١)، وفي هذا من المبالغة ما ليست في الكلام العادي؛ لأن إذا وصف أحد بغل اليد فهذا وصفه بالبخل عن طريق المبالغة، هل في مقدور البشر أن يحاكوا هذا الأسلوب؟

تقليب الكف(٢):

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾(٣).

صورة وحالة اليد لا تتضح إلا بدلالة السياق التركيبي ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ تعبير كنائي يفيد الندم والتحسر إذ "تغدو الحركة الجسدية مما يسد مسد كلمة أو كلام ... فيكون الوصف الحركي في سياقه الشريف قائمًا على مبدأ الاعتياض"(٤)، والتعبير اليدوي يسبق التعبير القولي وتتفق دلالة التعبيرين الحركي والقولي على تصور الندم والتحسر على ما أصاب البستان، وذلك: "أن وضع أجزاء الجسم يتخذ مباشرة قبل صدور أية وحدة كلام أو فكرة رئيسة، ويستمر هذا الوضع طوال

---

(١) إرشاد العقل السليم ١٦٨/٥.

(٢) تختزل الكفان تنوع دلالي، فقد تؤدي الحركة الواحدة للكفين من حيث القبض والبسط وعض الأنامل وغيرها دلالات شتى يحددها السياق أو المقام، ولعل الاتساع الدلالي للغة الكفين يرتبط بالعلائق العصبية بين الكفين والدماغ، وذلك أن "اليد هي أداة امتداد الدماغ، والجزء الوحيد في الجسم البشري الذي هو دومًا تحت العينين، والرابطة المميزة مع العالم الخارجي". (ينظر: لغة الإشارات، باكو نتالي، ترجمة: سمير شيخاني، ط١، دار الجليل، بيروت، ص٤٢).

(٣) الكهف: الآية (٤٢).

(٤) البيان بلا لسان: دراسة في لغة الجسد، مهدي عرار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧، ص١٩٧.

مجرى هذه الوحدة مع تغيرات بسيطة في أوضاع الرأس والذراعين والأيدي بحيث تكون مصاحبة للوحدات الأصغر للأفكار والكلام"(١).

هكذا تعددت الإشارات والإيماءات في صفات وأحوال بعض أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم، والتي تحمل في طياتها الكثير من الدلالات الإفهامية والتعليمية في بيان سياق المقام، فكانت وسيلة من وسائل الإبانة والإفصاح عن مكنونات النفس. ولا شك أن البيان الحركي آكد في الدلالة من البيان القولي الذي تتشكل معانيه ودلالته عن طريق التعبير باللغة، كما أن الأثر النفسي للكلام لا يمكن إغفاله، "فهو تعدَّي حدود اللغة إلى النفس؛ لأن في ذلك انتقالاً بالصورة إلى داخل النفس المعبرة"(٢)، وهذا كثير في صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم، كما تبين أنه لا يقوم مقام المفردة القرآنية ما يشابهها، أو يقاربها، بل لها من الاتساق والالتئام في مسلكها فلا يمكن أن تبدل بغيرها، منظمة في سياقه كنظم الدرر في السلك، بل هو أكثر روعة وحسنًا، يقول أبو هلال العسكري: "وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها وتمكَّن في أماكنها"(٣)، مما يؤكد أن الفرق اللغوي له الأثر الواضح في بيان سياق المقام.

---

(١) علم النفس الاجتماعي، وليم لامبرت، و(ولاس لامبرش)، ترجمة: سلوى الملا، مراجعة: محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، بيروت، ط٢، ص١٧٨.
(٢) مجاز القرآن وخصائصه الفنية، ص٩٦.
(٣) كتاب الصناعتين، ص١٦٧.

الخاتمـــــــة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا كما يحب ربنا ويرضى، والصلاة والسلام علـــى سيدنا محمد صاحب الشفاعة العظمى، وممثل أمته يوم العرض الأكبر في العقبى.

وبعد،،،

فإنه لا توفيق إلا بعد توفيق الله تعالى، ولا تيسير بعد تيسره، وما خاب من استصحب إخلاص النية في أي عمل يقوم به، فإنه ينعم بالعون الكبير من العلـــي القدير.

وليعلم كل من سطرت يداه على قرطاسه أنه ما كتـــب شـــيئًا إلا بـــأمر الله وتدبيره، فإن أحسن فمن توفيقه، وإن أساء فمن نفسه وتقصيره، والســـداد مـــن الرشاد، والنصح خير معين على استدراك ما فات.

وإني بعد أن أكرمني الله بالانتهاء من هذا البحث، أتوجـــه إليـــه ســـبحانه وتعالى أن يجعل هذا البحث بادرة خير إلى أعمال أخرى، وأن ينفعنا بتوجيهـــات أساتذتنا الكرام الذين سبقونا بالفضل إنه جواد كريم.

وبعد هذه المسيرة الشيِّقة من الدراسة والاستقصاء لصفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم ودراستها دراسة سياقية، وما أشعّته مـــن أنـــوار لُغوية ودلالية وبلاغية، من المفيد أن أجمل أهم النتائج التي توصل إليها البحـــث، وهي:

أولاً : أكد البحث أن نظرية سياق الحال التي نادى بها العـــالم الإنجليـــزي جون فيرث لم تكن جديدة في عهده؛ ذلك لأنها متأصلة عند علماء العربية، ومـــا تكرار عبارتي (لكل مقام مقال)، و(ومطابقة الكلام لمقتضـــى الحـــال) إلا شـــاهد ومشهود على ذلك.

ثانيًا : تلتقي آراء علماء اللغة المعاصرين مع آراء المسلمين القدامى في ضرورة الاستناد إلى دلالة السياق لتحديد المعنى، وفهم دلالات الألفاظ والتراكيب، وهذا يدل على صلاحية نظرية السياق وفاعليتها في تحليل النصوص وتفسيرها.

ثالثًا : اثبت البحث أن لدلالة السياق أهمية كبرى في تعليل اختيار الألفـــاظ والصيغ، فلكل لفظة أو صيغة في القرآن الكريم دلالة خاصة يقتضيها السياق.

رابعًا : تبين من خلال البحث أن دلالة السياق تكشف عن خصوصية من أهم خصائص الإعجاز القرآني، وهي ذلك التناسب العجيب، فكل لفظة من ألفاظ أعضاء خلق الإنسان، وإن توزعت في سور كثيرة فهي تتوقف على ما يحيط بها من ظروف وملابسات.

خامسًا : يتسم السياق بأن له أكثر من وجه للنظر في ألفاظه، ولعل أبرز تلك الوجوه التي لها الأثر، هو الدلالات التركيبية، إذ فيه تُعَيَّنُ دلالة المفردة، ويستقر معنى التركيب.

سادسًا : مُنحت أعضاء خلق الإنسان أهمية في القرآن الكريم ينبغي للإنسان أن يُوليها عناية، بحيث تكون معطياتها منطلق التفكير والتدبر.

سابعًا : ثبت من خلال البحث أن الحركات الجسدية في صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان كانت تقوم مقام الكلام، وربما أكثر تعبيرًا من الكلام، وإن هذه الظاهرة قد تتناول من رؤى متعددة كالدلالة التواصلية، والنفسية، أما الدلالة التواصلية فكونها ذات دلالة وإنابة وبيان، فقد تبين أن لها دور في تكوين المعنى، وتعيين المقاصد، أما النفسية فشيوع هذه الظاهرة قد يُفسر تفسيرًا نفسيًا، ومن ذلك: صك الوجه في موقف الفجاءة والمباغتة، وعض البنان كذلك إمرة على الندم، وتقليب الكف، فهذا كله باعثه انفعال نفسي، فتكون الحركة استجابة لهذا الباعث.

ثامنًا : تبين من خلال البحث أن ظاهرة اللون في بعض صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان ظاهرة مهمة، ومن مظاهر الإعجاز في كتاب الله، لما تقدمه للإنسان من دلالات نفسية، وبما تثيره من مشاعر وأحاسيس تبعث على التفكر والتدبر، وقد يتعارض اللون داخله عن ظاهره أحيانًا من منحى نفسي، فيد موسى ــ عليه السلام ــ جعلها الله تعالى بيضاء فترة قصيرة؛ ليثبت للسحرة معجزة فأمنوا؛ لذا يُعد وجود هذه الظاهرة وجه من وجوه نظمه المعجز.

تاسعًا : أكد البحث أن لكل كلمة من صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان دلالة خاصة، وإيحاءً خاصًا، وانسجامًا في التركيب، ولا يستطيع أن يلم بسائر الدلالات، ويوازن بين دلالة وأخرى، ويضع الكلمة المعبرة عن الموقف أصدق

تعبير، والمصورة لخلجات النفوس وخطرات الضمائر لا يستطيع ذلك إلا العليم الخبير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

عاشرًا : وضحت الدراسة أن القرآن الكريم لا يمكن أن تُسبر أغواره، أو تنكشف دلالته على الوجه الأمثل إلا بمراعاة المناسبة، وهذا لا يتأتى إلا بمراعاة السياق، وأن النص القرآني غني بمدلولاته، مرن بتفاعلاته مع الواقع ولا يجدب غناه، ولا يقيد مرونته سوى البعد عن السياق، فضلاً عن كون القرآن الكريم حمَّال أوجه أي صلاحيته لكل زمان ومكان.

ومن موجبات الذكر مع اختتام البحث هو:

الحمد الجزيل لمولي النعمة والفضل، فله الحمد سبحانه في الأولى والآخرة، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا جميعًا من الذين ينتفعون بالعلم وينفعون، وأسأله أن يتقبل هذا العمل، وأن يتجاوز عما أكون أخطأت فيه، إنه سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الصادق الأمين.

الباحثة

ثبت المراجع والمصـــادر

القرآن الكريم .. جل من أنزله.

حرف (الألـــــــف)

- الإبداع البياني في القرآن العظيم والأمثال والتشبيه والاستعارة والكناية مـــع الإمتاع بروائع الإبداع، محمد علي الصابوني، ط، بيروت.
- أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث من خلال بعض نماذجه، توفيق الزيدي، الدار العربية للكتاب، طرابلس، (د.ت).
- أثر الوقف على الدلالة التركيبية، محمد حبلص، دار الثقافة العربيـــة ١٤١٤هـ ــ١٩٩٣م.
- إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين ابن دقيـــق العيـــد (ت٧٠٢هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، أحمد محمد شـــاكر، مطبعـــة الســـنة المحمديـــة ١٣٧٢هـ ــ١٩٥٣م.
- أحكام القرآن، ابن العربي (القاضي محمد بن عبدالله أبو بكـــر بـــن العربـــي المعافري الأشبيلي المالكي، ت٥٤٣هـ)، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان ط٣، ١٤٢٤هـ ــ٢٠٠٣م.
- إحياء علوم الدين، الغزالي (أبو حامد بن محمد الغزالي الطوسي، ت٥٠٥هـ)، دار المعرفة ــ بيروت.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم = تفسير أبي السعود (أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، ت٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت.
- أساس البلاغة، الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، جار الله، ت٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتـــب العلميـــة، بيروت ــ لبنان، ط١، ١٤١٩هـ ــ١٩٩٨م.
- الاستعارة: نشأتها وتطورها في الأساليب العربية، شيخون محمد السيد، ط١، دار الطباعة المحمدية بالأزهر، القاهرة ١٩٧٧م.

- أسرار البلاغة، الجرجاني (أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الفارسي الجرجاني، ت٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني.
- الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، دار المحبة، ط١، دمشق.
- الإشارات الجسمية: دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل، كريم زكي حسام الدين، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١م.
- الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبدالله محمود شحاته، القاهرة ١٩٧٥م.
- إصلاح الوجوه والنظائر، (هارون بن موسى، ت١٧٠هـ)، تحقيق: حاتم صالح الضامن، وزارة الثقافة والإعلام، دائرة الآثار والتراث، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٨م.
- أصل الإنسان في القرآن الكريم، سامي عابدين، ط١، بيروت، دار الحرف العربي ٢٠٠٥م.
- الإعجاز العلمي والبلاغي في القرآن الكريم، د. فهد خليل زايد، دار النفائس، ط١، ١٤٢٨هـ ـ٢٠٠٨م.
- الإعجاز في نظم القرآن، د. محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ ـ١٩٧٨م.
- إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د. حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٣٩٠هـ ـ١٩٧٠م.
- إعجاز القرآن في حواس الإنسان: دراسة في الأنف والأذن والحنجرة في ضوء الطب وعلوم القرآن والحديث، د. محمد كمال عبدالعزيز، مكتبة السباعي، ومكتبة القرآن، القاهرة.
- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم: ابن خالويه (أبو عبدالله الحسين بن أحمد، ت٣٧٠هـ) تصحيح السيد عبدالرحيم محمود، دار الكتب المصرية، ١٩٤١م.

ـ إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش(ت١٤٠٢هـ) دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص، سوريا، دار اليمامة (دمشق ـ بيروت)، ط٤، ١٤١٥هـ.
ـ أعضاء خلق الإنسان في القرآن الكريم: دراسة معجمية ودلالية، د. سيد أحمد علي الصاوي، مطبعة العدوي، ط١، ١٤٢٣هـ ـ٢٠٠٢م.
ـ أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، عبدالرحمن حسن حنبكة الميداني، ط١، دمشق، دار القلم ١٩٩٦م.
ـ الإنسان في القرآن الكريم، عاشور السيد، القاهرة، دار غريب ٢٠٠٢م.
ـ الإنسان في القرآن الكريم، عباس العقاد، بيروت، دار الكتاب ١٩٦٩م.
ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل = تفسير البيضاوي (ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ت٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.
ـ الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)، شرح وتعليق: محمد عبدالمنعم خفاجي، المطبعة الفاروقية الحديثة ١٩٥٠م.

حرف (البـــــاء)

ـ البحث الدلالي عند الأصوليين، محمد يوسف حبلص، مكتبة عالم الكتب، ط١، ١٤١١هـ ـ١٩٩١م.
ـ البحر المحيط في التفسير، أبو حيان (محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، ت٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر ـ بيروت ١٤٢٠هـ.
ـ البرهان في علوم القرآن، الزركشي (أبو عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي، ت٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٣٧٦هـ ـ١٩٥٧م.
ـ البرهان في متشابه القرآن، محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق: أحمد عز الدين عبدالله خلف الله، دار الوفا، المنصورة، مصر، ط١ ١٤١٨هـ.

ـ بصائر ذووي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب، ت٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
ـ بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمّان، ط٣ ١٤٢٦هـ.
ـ البيان بلا لسان: دراسة في لغة الجسد، مهدي عرار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ٢٠٠٧م.
ـ البيان والتبيين، الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، أبو عثمان الجاحظ، ت٢٥٥هـ)، مكتبة الهلال ـ بيروت ١٤٢٢هـ.

حرف (التـــــاء)

ـ تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي (محمد بن محمد بن عبدالرواق الحسيني، أبو الفيض، ت١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
ـ تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين ـ بيروت، ط٤ ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧م.
ـ تأملات في سورة يس، حسن محمد باجودة، دار النصر، دار الاعتصام، القاهرة، ط٣ ١٣٩٧هـ ـ١٩٦٧م.
ـ تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري، ت٢٧٦هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.
ـ التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم (شهاب الدين أحمد بن محمد عماد الدين علي أبو العباس، ت٨١٥هـ)، تحقيق: ضاحي عبدالباقي محمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١ ١٤٢٣هـ.
ـ التبيان في تفسير القرآن، الطوسي (أبوجعفر محمد بن الحسن، ت٤٦٠هـ)، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، أردبيهشت ١٣٢٠هـ.

ـ التبيان في ضوء الأساليب العربية، عائشة حسين فريد، دار قباء للنشر، (د.ط)، ٢٠٠٠م.
ـ التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، ابن عاشور (محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي، ت١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية، تونس ١٩٨٤م.
ـ التصوير البياني في حديث القرآن عن القرآن (دراسة تحليلية)، عبدالعزيز ابن صالح العمار، دبي، الإمارات، ط١ ٢٠٠٧م.
ـ التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط٧، ١٩٨٢م.
ـ التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، عودة خليل أبو عودة، مكتبة المنار، الأردن، ط١ ١٤٠٥هـ ـ١٩٨٥م.
ـ التعبير الفني في القرآن، د. بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١ ١٩٩٤م.
ـ تفسير الجلالين، (جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، ت٨٦٤هـ)، وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت٩١١هـ)، الناشر: دار الحديث، القاهرة، ط١.
ـ تفسير سورة يس، محمد بن صالح العثيمين، دار البصيرة، الإسكندرية ٢٠٠٢م.
ـ تفسير القرآن، السمعاني (أبو المظفر منصور بن محمد بن عبدالجبار بن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي، ت٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض ١٤١٨هـ ـ١٩٩٧م.
ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، ت٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي محمد سلامة، دار طيبة، ط٢ ١٤٢٠هـ ـ١٩٩٩م.

ـ تفسير مجاهد (أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي، ت١٠٤هـ)، تحقيق: محمد عبدالسلام أبو النيل، الناشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط١ ١٤١٠هـ ـ١٩٨٩م.
ـ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر، دمشق، ط٢ ١٤١٨هـ.
ـ التفسير الميسر، إعداد نخبة من أساتذة التفسير، مجمع الملك فهد، السعودية، ط٢ ١٤٣٠هـ ـ٢٠٠٩م.
ـ تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد، ت:٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد عوامة، الناشر: دار الرشيد ـ سوريا، ط١، ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م.
ـ تقرير القرآن إلى الأذهان، محمد الحسيني الشيرازي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط١ ١٤٠٠هـ.
ـ تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، ت٤٠٦هـ، حققه وقدمه وضع فهارسه: محمد عبدالغني حسن، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٧٤هـ ـ١٩٥٥م.
ـ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، إسماعيل البروسوي، اختصار وتحقيق الشيخ: محمد علي الصابوني، الدار الوطنية للنشر والتوزيع، بغداد، ط١، ١٤١٠هـ ـ١٩٩٠م.
ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان = تفسير السعدي (عبدالرحمن ابن ناصر بن عبدالله السعدي، ت١٢٧٦هـ)، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١ ١٤٢٠هـ ـ٢٠٠٠م.

حرف (الجيم)

ـ الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي (أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، شمس الدين القرطبي، ت٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢ ١٣٨٤هـ ـ١٩٦٤م.

ـ جامع البيان في تأويل القرآن = تفسير الطبري (محمد بن جرير بن يزيد ابن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر، ت٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١ ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.
ـ الجديد في تفسير القرآن، محمد السيزواري النجفي، دار التعاون للمطبوعات، بيروت، ط١ ١٤٠٢هـ.
ـ الجسم البشري، محمد فايز المط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١ ١٩٨٩م.
ـ جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، أحمد ياسوف، دار المكتبي، دمشق، ط١ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
ـ جمهرة اللغة، ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ت٣٤١هـ)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين ـ بيروت، ط١ ١٩٨٧م.
ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي (أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، ت٨٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبدالموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١ ١٤١٨هـ ـ

حرف (الحـــــاء)

ـ حاشية الشهاب المسماة: عناية وكفاية الراضي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي على تفسير البيضاوي، أبو سعيد ناصر الدين عبدالله بن عمر، ضبط وتخريج الآيات: عبدالرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٩٩٧م.
ـ حقائق التأويل في متشابه التنزيل، السيد الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ)، شرح: محمد الرضا كاشف الغطاء، دار الأضواء، بيروت.
ـ الحيوان، الجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢ ١٤٢٤هـ.

حرف (الخـــــاء)

ـ الخصائص، ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، ت٣٩٢هـ)، المكتبة العلمية.

ـ الخطاب النفسي في القرآن الكريم: دراسة دلالية أسلوبية، د. كيم حسين ناصح الخالدي، دار صفاء، الأردن.
ـ خلق الإنسان، الزَّجَّاج (إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزَّجَّاج، ت٣١١هـ) (ضمن ثلاث رسائل في اللغة)، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٣٨٣هـ ـ١٩٦٤م.
ـ خلق الإنسان في اللغة، أبي محمد الحسن بن أحمد بن عبدالرحمن، تحقيق: د. أحمد خان، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت، ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٦م.

حرف (الـــــدال)

ـ دراسات فنية في سور القرآن، د. محمود البستاني، مؤسسة الطبع، مجمع البحوث الإسلامية، ط١ ١٤٢١هـ.
ـ دراسات في علم اللغة، فاطمة محجوب، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ت).
ـ درة التنزيل وغرة التأويل، الإسكافي (محمد بن عبدالله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي، ت٤٢٠هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق: محمد مصطفى أيدين، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي، ط١ ١٤٢٢هـ ـ٢٠٠١م.
ـ الدر المصون في محكم الكتاب المكنون، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبدالدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت٧٥٦هـ)، تحقيق: د. أحمد محمد الخرّاط، دار القلم، دمشق.
ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، دار الفكر ـ بيروت.
ـ دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو نهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ ـ١٩٩٢م.
ـ دلالة السياق في القصص القرآني، محمد عبدالله العبيدي، صنعاء، وزارة الثقافة، (د.ط)، ٢٠٠٤م.
ـ دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة: د. كمال بشر، دار غريب، مصر، ط٢، ١٩٩٧م.

ـ ديوان الأخطل، برواية أبي عبدالله محمد بن العباس اليزيدي، بيروت، (د.ت).

حرف (الـــــــراء)

ـ الرسالة الشافعية في وجـوه الإعجـاز، عبـدالقاهر الجرجـاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر في ذيل دلائل الإعجاز، طبعـة المـدني ١٤٠٤هـ ـ١٩٨٣م.
ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي (شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الآلوسي، ت١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبـدالباري عطية، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤١٥هـ.
ـ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام (أبو القاسـم عبـدالرحمن ابن عبدالله بن أحمد السهيلي، ت٥٨١هـ)، دار الكتب العلمية، بيـروت، ط١، ١٤١٨هـ ـ١٩٩٧م.

حرف (الـــــــزاي)

ـ زاد المسير في علم التفسير، الجوزي (جمال الدين أبو الفرج بن علـي بـن محمد الجوزي، ت٥٩٧هـ)، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربـي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
ـ الزينة في الكلمات الإسلامية، الرازي (أحمد بن أحمد بن أحمـد أبـو حـاتم الرازي، ت٣٢٢هـ)، تحقيق: حسين بن فيض الله الهمداني، دار الكتاب بمصر ١٩٥٧م.

حرف (الســـــــين)

ـ سر الفصاحة، الخفاجي (أبو محمد بن عبدالله بن محمـد سـعيد بـن سـنان الخفاجي الحلبي، ت٤٦٦هـ)، تحقيق: عبـدالمتعال الصـعيدي، محمـد علـي الصبيح وأولاده، ميدان الأزهر، القاهرة، ط١، ١٣٧٢هـ ـ١٩٥٣م.
ـ سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحّاك، الترمـذي، أبو عيسى (ت:٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون، الناشر: مـكتبة مصطفى البابي الحـلبي ـ مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ ـ١٩٧٥م.

ـ سنن ابن ماجه القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، (د.ط).
ـ سياق الحال في الدلالة (تحليل وتطبيق)، د. عوض حيدر، مكتبة النهضة المصرية.

حرف (الشين)

ـ شرح تلخيص المفتاح، سعد الدين التفتازاني، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م.
ـ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ابن عقيل (عبدالله بن عبدالرحمن العقيلي الهمداني المصري، ت٧٦٩هـ)، ط١٦، بيروت، دار الفكر.

حرف (الصاد)

ـ صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، الناشر: دار الصابوني، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ ـ١٩٩٧م.
ـ الصورة الفنية في المثل القرآني، دراسة نقدية وبلاغية، محمد حسين علي الصغير، دار الهادي، بيروت، ١٩٩٢م.

حرف (الطاء)

ـ الطبيعة في القرآن الكريم، قاصد ياسر الزيدي، بغداد، ١٩٨٠م.
ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق التنزيل، يحيى بن حمزة بن علي إبراهيم العلوي (ت٧٤٩هـ)، مطبعة المقتطف، مصر ١٩١٤م.

حرف (الظاء)

ـ ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ، الميداني (عبدالرحمن حسن حنبكة الميداني)، دار القلم، دمشق ـ سوريا، ١٩٩٣م.

حرف (العين)

ـ العقد الفريد، ابن عبدربه (أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبدربه حبيب بن جدير بن سالم الأندلسي، ت٣٢٨هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

ـ علم البيان في الدراسات البلاغية، علي البدري (ديوان دار النشر، ط٢، ١٤٠٤هـ ـ١٩٨٤م.
ـ علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، مصر، ط٦، ١٩٩٦م.
ـ علم الدلالة: دراسة وتطبيقًا، د. نور الهدى لوشن، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي.
ـ علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق: دراسة تاريخية تأصيلية، فايز الداية، دار الفكر، سوريا، ١٩٧٦م.
ـ علم الدلالة عند العرب: دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة، عادل الفاخوري، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٥م.
ـ علم اللغة المعاصر (مقدمات وتطبيقات)، د. يحيى عباينة، د. آمنة الزعبي، دار الكتب الثقافي، الأردن، ١٤٢٦هـ ـ٢٠٠٥م.
ـ علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، د. محمود السعران، ط٢، دار الفكر العربي ١٤١٧هـ ـ١٩٩٧م.
ـ علم المعاني، د. درويش الجندي، دار نهضة مصر، القاهرة.
ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ)، حققه وعلق على حواشيه: محمد محمد الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، ط٥، ١٤٠١هـ ـ١٩٥٢م.
ـ علم النفس الاجتماعي، وليم لامبرت، و(ولاس لامبرش)، ترجمة: سلوى الملا، مراجعة: محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، بيروت، ط٢.
ـ العين، الفراهيدي (أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، ت١٧٠هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

حرف (الغين)

ـ غريب القرآن، ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت:٢٧٦هـ)، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ ـ١٩٧٨م.

حرف (الفـــــاء)

- الفائق في غريب الحديث والأثر، الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجـاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة ــ لبنان، ط٢.
- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، أبو يحيى زكريا الأنصاري، تحقيق: محمد علي الصابوني، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
- فتح القدير، الشوكاني (محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني اليمني، ت١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق ــ بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.
- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان العجيلـي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٢٠٤هـ.
- الفراسة، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، تحقيق وتعليق: مصـطفى عاشـور، مطبعة القرآن للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٧م.
- الفروق اللغوية، العسكري (أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران العسكري، ت٣٩٥هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة ــ مصر.
- فصول في فقه اللغة العربية، د. رمضـان عبـد التـواب، مكتبـة الخـانجي بالقاهرة، ط٣، ١٤١٥هـ ــ١٩٩٤م.
- فقه اللغة وسر العربية، الثعالبي (عبدالملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، ت٤٢٩هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التـراث العربي، ط١، ١٤٢٢هـ ــ٢٠٠٢م.
- فقه اللغة وخصائص العربية، د. محمد المبارك، دار الفكر الإسلامي الحديث، ٢٠٠٠م.
- الفوائد في مشكل القرآن، عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمي، تحقيق: سيد رضوان علي الندوي، دارالشروق، جدة، ١٤٠٢هـ ــ١٩٨٢م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب (إبراهيم حسين الشاربي، ت١٣٨٥هـ)، الناشـر: دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ.

حرف (القـــــــاف)

ـ القاموس المحيط، الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، ط٨، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٥م.
ـ القرآن وقضايا الإنسان، د. عائشة عبدالرحمن، ط٣، دار العلم، بيروت ١٩٧٨م.

حرف (الـــــــكاف)

ـ كتاب الأفعال، ابن القطاع (أبو القاسم علي بن جعفر بن القطاع، ت٥١٥هـ)، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٢هـ ـ١٩٨٣م.
ـ كتاب السبعة في القراءات، ابن مجاهد (أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي، ت٣٢٤هـ)، تحقيق: شوقي ضيف، الناشر: دار المعارف ـ مصر، ط٢، ١٤٠٠هـ.
ـ كتاب الصناعتين، العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبوالفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.
ـ الكتاب والقرآن: دراسة دلالية في السياق القرآني، عودة خليل، دار الرازي، الأردن ١٩٩٦م.
ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.
ـ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي التهانوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م.
ـ كشف المعاني في المتشابه والمثاني، محمد بن إبراهيم بن جماعة، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، دار الشريف، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ.
ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي (أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق، ت٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ: نظير الصاعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ ـ٢٠٠٢م.

ـ الكون والإنسان بين العلم والقرآن، بسام دفضدع، ط١١، دمشـــق، اليمامـــة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٤م.

حرف (الـــــــلام)

ـ لسان العرب، ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويعفي الأفريقي، ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
ـ لغة الإشارات، باكونتالي، ترجمة: سمير شيخاني، ط١، دار الجليل، بيروت.
ـ اللغة العربية ـ معناها ومبناها ـ د. تمام حسان عمر، عالم الكتب، ط٥، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.
ـ اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ترجمة: د. عباس صادق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٧م.
ـ اللمع في العربية، ابن جني، القاهرة، دارالكتب والوثائق القومية، ١٩٧٩م.

حرف (الميـــــــم)

ـ مجاز القرآن، أبي عبيدة (معمر بن المثني، ت٢١٠هـ)، عارضه: د. محمد فؤاد سزكين، الناشر: مكتبة الخانجي بمصر، ١٣٨١هـ.
ـ مجاز القرآن وخصائصه الفنية وبلاغته العربية، محمد حسين علي الصغير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٤م.
ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي (أبي علي الفضل بن الحسن، ت٥٤٨هـ)، دار إحياء التراث، بيروت ١٢٣٩هـ.
ـ محاضرات في اللسانيات التاريخية والعامة، زبير دراقي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت).
ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (أبو محمد عبدالحق ابن غالب بن عبدالرحمن بن تمام الله عطية الأندلسي المحاربي، ت٥٤٢هـ)، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٢هـ.
ـ المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيدة (أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة المرسي، ت٤٥٨هـ)، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

ـ مختار الصحاح، الرازي (زين الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر عبدالقادر الحنفي الرازي، ت٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت ـ صيدا، ط٥، ١٤٢٠هـ ـ١٩٩٩م.
ـ مختار القاموس، الطاهر أحمد الزاوي، الدار العربية للكتاب، (د.ط)، ١٩٨٣م.
ـ المخصص، ابن سيده، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ـ١٩٩٦م.
ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل = تفسير النسفي (أبو البركات عبدالله بن أحمد محمود حافظ الدين النسفي، ت٧١٠هـ)، تحقيق: يوسف علي بديوي، راجعه: محيي الدين ديب مصنتو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ ـ١٩٩٨م.
ـ المستدرك على الصحيحين، ابن البيع (أبو عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله ابن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، ت:٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤١١هـ ـ١٩٩٠م.
ـ مسند أحمد بن حنبل، دار صادر ـ بيروت.
ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي (أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس، ت٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية ـ بيروت.
ـ المصنف، الكوفي (عبدالله بن محمد بن أبي شيبة، ت٢٣٥هـ)، تحقيق: سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ.
ـ معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي (أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفرّاء البغوي الشافعي، ت٥١٠هـ)، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.
ـ معاني القرآن، الفرّاء (أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الديلمي، ت٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي وآخرين، الناشر: الدار المصرية للتأليف، مصر، ط١.

ـ معاني القرآن، النحاس (أبو جعفر أحمد بن محمد، ت٣٢٨هـ)، تحقيق: محمد علي الصابوني، الناشر: جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩هـ، ط٢، ١٤٢١هـ.
ـ معاني القرآن وإعرابه، المنسوب للزَّجَّاج، تحقيق: عبدالجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط١، ١٤١٤هـ ـ١٩٩٤م.
ـ معجم الباقلاني في كتبه الثلاثة: التمهيد والإنصاف والبيان، سميرة فرحات، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، دار الكتب المصرية، ١٣٦٤هـ.
ـ مع الطب في القرآن الكريم، عبدالحميد دياب، مؤسسة علوم القرآن الكريم، دمشق، ١٩٨٢م.
ـ المعنى الشعري في التراث النقدي، د. حسن طبل، مكتبة الزهراء، القاهرة، ١٩٨٥م.
ـ مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، الرازي (أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ.
ـ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم (محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن القيم الجوزية، ت٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ.
ـ الموسوعة القرآنية، خصائص السور، جعفر شرف الدين، تحقيق: عبدالعزيز بن عثمان التويجري، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.
ـ المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ت٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم الشامية، دمشق ـ بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
ـ المفصل في علم العربية، الزمخشري، بيروت، دار إحياء العلوم ١٩٩٠م.
ـ مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، محمد علي الجوزو،ط٢، ١٩٨٠م.

ـ مقاييس اللغة، ابن فارس (أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، بيروت، دار الجيل، ودار الفكر.
ـ مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، محمد محمد يونس علي، دار الكتب الجديد، لبنان ٢٠٠٤م.
ـ ملاحظ التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه من آي التنزيل، الغرناطي (أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر، ت٧٠٨هـ)، وضع حواشيه: عبدالغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان ١٤٠٥هـ.
ـ من بلاغة النظم القرآني (دراسة تحليلية لمسائل المعاني والبيان والبديع في آيات الذكر الحكيم)، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط١.
ـ منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ابن الجوزي (عبدالرحمن بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي، ت٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد السيد الصفطاوي، د. فؤاد عبدالمنعم أحمد، الإسكندرية، (د.ت).
ـ المنجد في اللغة، كراع الهنائي، تحقيق: د. أحمد مختار عمر، وضاحي عبدالقادر، القاهرة ١٩٦٧م.
ـ من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله، مكتبة المدينة ٢٠١٤هـ.
ـ موسوعة جسم الإنسان، زينب منصورحبيب، عمان، دارالإسراء ٢٠٠٠م.
ـ الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٩٧.

حرف (النـــــون)

ـ نتائج الفكر في النحو، السهيلي (أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي، ت٥٨١هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام.
ـ نحو الصوت ونحو المعنى،نعيم علوية،المركز الثقافي العربي،ط١٩٩٢،١م.

ـ النحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي)، د. محمد حماسة عبداللطيف، دار الشروق، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.
ـ نحو اللغة العربية، محمد أسعد النادري، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٢م.
ـ النظام القرآني، عالم سبيط النيلي، بغداد ١٤٢٤هـ ـ٢٠٠٣م.
ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، صلاح عبدالفتاح الخالدي ١٩٨٣م.
ـ نظرية السياق القرآني (دراسة تأصيلية دلالية نقدية)، المثنى عبدالفتاح محمود، عمان، الأردن، دار وائل للنشر، ط١، ٢٠٠٨م.
ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ت٨٨٥هـ)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، ط١، ١٣٨٩هـ ـ١٩٦٩م.
ـ النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٢م.
ـ النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن، الرماني (علي بن عيسى، ت٣٨٦هـ)، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٦م.
ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير (مجد الدين أبو السعادات المبارك بن الأثير،ت:٦٠٦هـ)، المكتبة العلمية، بيروت١٣٩٩هـ ـ١٩٧٩م.

حرف (الـــــــواو)

ـ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي (أبو الحسين علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي، ت٤٦٨هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار النشر: دار القلم، الدار الشامية، دمشق ـ بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــــــوع	رقم الصفحة
المقدمة	١٤٤٠
التمهيد:وصف الإنسان في القرآن الكريم في ضوء السياق اللغوي	١٤٤٦
الصفة لغة واصطلاحًا.	١٤٤٦
مدلول كلمة إنسان.	١٤٤٧
السياق أهميته ومجالاته.	١٤٤٩
المبحث الأول: صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان الباطنة	١٤٤٥-١٥٠٣
الأرحام.	١٤٥٦
الصدر.	١٤٥٧
الفؤاد.	١٤٦٥
القلب.	١٤٦٩
صفات القلب المؤمن:	١٤٦٩
القلوب المؤلفة.	١٤٦٩
القلوب الخاشعة.	١٤٧٠
القلوب السليمة.	١٤٧٢
القلوب المربوط عليها.	١٤٧٣
القلوب المطمئنة.	١٤٧٤
القلوب الوجلة.	١٤٧٧
القلوب العاقلة.	١٤٧٧
صفات القلب الكافر:	١٤٧٩
القلوب المختوم عليها.	١٤٨٠
القلوب الزائغة الذعرة.	١٤٨١
القلوب المشمئزة.	١٤٨٥
القلوب المستورة.	١٤٨٥
القلوب التي أُشربت الحب.	١٤٨٦

الموضـــــــــــــــــوع	رقم الصفحة
القلوب المطبوع عليها.	١٤٨٨
القلوب الغافلة.	١٤٩٣
القلوب القاسية.	١٤٩٤
القلوب المتقلبة.	١٤٩٧
القلوب اللاهية.	١٤٩٨
القلوب المريضة.	١٤٩٩
القلوب النادمة.	١٥٠١
الأمعـــــاء.	١٥٠٢
الوتيـــــــن.	١٥٠٢
المبحث الثاني: صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان الظاهرة	١٥٠٤-١٥٥٤
الأذن.	١٥٠٤
الأصبع.	١٥٠٨
الأنف.	١٥٠٩
البطن.	١٥١٠
الجبين.	١٥١١
الجلد.	١٥١٢
الجُنب.	١٥١٦
الدُبر.	١٥١٧
الرأس.	١٥١٨
الرجل.	١٥٢٠
الشوي.	١٥٢٢
الظهر.	١٥٢٣
العضد.	١٥٢٥
العقب.	١٥٢٦
العنق.	١٥٢٧

الموضـــــــــــــــــوع	رقم الصفحة
العين.	١٥٢٨
الفرج.	١٥٣٢
الفم.	١٥٣٢
القدم.	١٥٣٤
اللسان.	١٥٣٥
الناصية.	١٥٣٦
الوجوه وصفاتها:	١٥٣٨-١٥٤٧
الوجوه المنعمة.	١٥٣٨
الوجوه المعذبة.	١٥٣٩
تلون الوجه.	١٥٤٤
اليد.	١٥٤٧
تلون اليد.	١٥٥٤
المبحث الثالث: صفات وأحوال أعضاء خلق الإنسان ذات التعبير الحركي	١٥٥٥-١٥٧٠
حركة الرأس.	١٥٥٦
حركة الرجل.	١٥٥٨
حركة العطف.	١٥٥٩
حركة العنق.	١٥٦٠
حركة العين.	١٥٦١
حركة الوجه.	١٥٦٣
حركة اليد.	١٥٦٥
الخاتمة.	١٥٧١
فهرس المصادر والمراجع.	١٥٧٤-١٥٩١
فهرس الموضوعات.	١٥٩٢